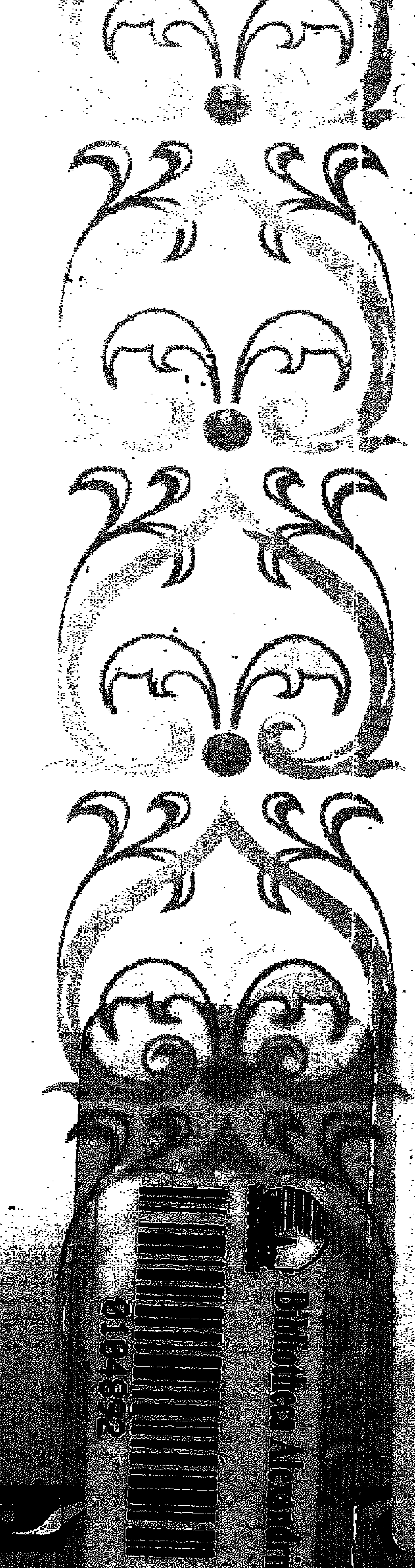
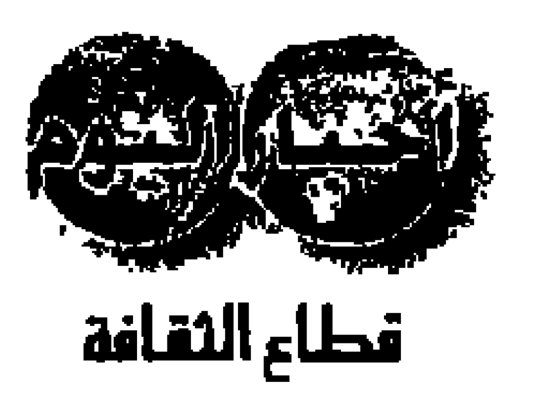


قطاع الثقافة

فقهاء المدينة السبعة



بقلم/ أ.د. محمد ابراهيم الجيوشى



قطاع الثقافة



فقهاء المدينة السبعة

بقلم / أ.د. محمد ابراهيم الجيوشى

مطبوعات



قطاع الثقافة

الفهـــرس

١ - سعيد بن المسيب.

٢ - عروة بن الزبير.

٣ - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

٤ - أبو بكر بن عبد الرحمن.

٥ - القاسم بن محمد.

٦ - خارجة بن زيد.

٧ - سليمان بن يسار.

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقه إلى يوم الدين .

وبعـــــد :

فتـحاول هذه الصـفحـات أن تعرض صورة للنشـاط الفكرى الذى بدأ فى المـسـجـد النبـوى بالمـدينة المـنورة أخـذا من التوجيهات النبوية التى كـان يتلقاها الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله ﷺ.

وبروز عدد من الأصـحاب فى مجال الـفتوى والتوجـيه على ضوء مـا تلقوه من معـارف فى مجـالس رسول الله ﷺ، أو من إجاباته على بعض الأسئلة والاسـتفسارات التى كان يتـوجه بها الداخلون الجدد فى الإسلام.

وتلقى عن هؤلاء الأصـحـاب عدد من التـلامـيذ عكفـوا على الإلمام ـ قدر المستطاع ـ على اسـتيعاب ما روى عن النبى ﷺ وخلفـائه من قضـايا وأحكام، وعـرف هذا الجيل الذى أخـذ عن الأصحاب بجيل التابعين، وكـان فى طليعتهم هؤلاء الذين حملوا اللواء فى المـدينة المنورة، حيث كـان يفد إليهـا طلاب العلم من شتى البقاع، وكان من أبرزهم سبـعة من الفقهاء . وتعرض هذه الدراسة تراجم مـفصلة لكل واحـد من هؤلاء الذين اصطلح على تسميـتهم بفقهاء المـدينة السبعة، قد يكون فى عـرض سيرتهم ومنهجهم فائدة لشبابنا وطلاب العلم فى أيامنا هذه. والله الهادى إلى سواء السبيل.

أ.د. محمد إبراهيم الجيوشى

القاهرة فى رجب الفرد سنة ١٤١٩ هـ

نوفمـــبر سنة ١٩٩٨ م

تمهيد

كان الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا أرادوا أن يعرفوا حكما من الأحكام، أو أمرا من أمور العقيدة والعبادات، أو السلوك والأخلاق والتعاملات اتجهوا إلى النبى ﷺ يسألونه عن الطريقة الصحيحة التى يتعاملون بها أو يعلمون بها غيرهم من أولادهم ومخالطيهم.

وكانوا يتلقون عنه - صلوات الله وسلامه عليه - مايريد أن يوجههم إليه فى أمور الدين والدنيا.

وقد حفظت لنا كتب السنن والسير فيضا من هذه الأسئلة أو التوجيهات التى كانوا يتلقونها عن النبى ﷺ ابتداء، أو إجابة عن بعض تساؤلاتهم حول ما يعرض لهم من أمور الدنيا والدين.

وقد شكل ذلك معينا لا ينضب من المعارف التى استقاها الصحابة منه عليه السلام، وانتفعوا بها حتى حصّل عدد منهم من العلم الذى تلقاه عن رسول الله ﷺ ما هيأ له أن يصل إلى درجة تؤهله لأن يجلس مجلس الفتوى فى حياة النبى ﷺ، وبخاصة هؤلاء الذين بعث بهم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أماكن خارج مكة لما كان بمكة، أو خارج المدينة بعد أن هاجر إليها.

وممن يمثلون الفترة الأولى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، حيث هاجر مع عدد من المسلمين إلى الحبشة بعد أن اشتد عليهم إيذاء قريش، وإيذان النبى لهم أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من اضطهاد أهل مكة قائلا لهم : « إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد » .

ومصعب بن عمير، الذى أرسله النبى ﷺ إلى يثرب «المدينة» بعد بيعة العقبة، حيث قام بدور الدعوة إلى الإسلام، وتعليم أهل المدينة القرآن وتفقيههم فى الدين مما كان له أبعد الأثر فى إسلام أهل المدينة فيما بعد.

وممن يمثل الدور الثانى. وهم الذين بعث بهم رسول الله ﷺ إلى أماكن مختلفة ليقوموا بنشر الدعوة بعد هجرته إلى المدينة ـ معاذ بن جبل، الذى توجه إلى اليمن، مزودا بتوجيهات ونصائح نبوية تعينه على القيام بمهامه على خير وجه، ومنها : « يا معاذ إنك تقدم على قوم يتعبدون فى الصوامع، ادعهم إلى شهادة أن لا إله-إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم استجابوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة، وصدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم ».

ومن تلك التوجيهات الوصية الجامعة التى بنى عليها العلماء رأيهم فى اعتبار القياس والاجتهاد من أصول التشريع فى الإسلام، وذلك حيث قال ﷺ : «يا معاذ، بماذا تحكم إذا عرض لك أمر؟

قال : أعرضه على كتاب الله، فإن وجدته أخذت به.

قال الرسول ﷺ : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟

قال : أعرضه على سنة رسول الله.

قال ﷺ : فإن لم تجد فى السنة ؟

قال : اجتهد رأيى.

فسرّ النبى ﷺ من إجابة معاذ، وعقب قائلا: « الحمد لله الذى

وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله[1]» .

وقد اختار النبى ﷺ معاذا لهذه المهمة لما كان يأنسه فيه من حرص على الاستفادة من علم رسول الله ﷺ جهد الطاقة، حتى إنه قال بشأنه : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » إلى جانب ما كان يتميز به من تضحية وتفان.

وكان الإمام على - رضى الله عنه - ممن بلغوا درجة الفتوى فى عهد رسول الله ﷺ واشتهر بالقضاء بين المسلمين، حتى روى عن بعض الصحابة أنه كان يقول : « كنا نتحدث أن من أقضى أهل المدينة علىٌّ بن أبى طالب ».

وذلك لأن النبى ﷺ قد دعا له بالفهم والتفهيم وقد وهبَ ذلك التوفيق فى القضاء، لأنه كان ملازما لرسول الله ﷺ، ونَشأ فى بيته، وعلى مقربة منه، وهو فتى صغير، ثم لازمه أيضا بعد أن صار رجلا، وتزوج بابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وقد هيأ له كل ذلك فرصة نادرة لم تتهيأ لأحد سواه.

وقد تحدث علىٌّ - كرم الله وجهه - عن هذه الظروف التى أتاحت له القرب من رسول الله ﷺ، والاستفادة من علمه، بعد أن نال بركة دعائه، وفى ذلك يقول - رضى الله عنه - : إنه كان إذا سأله أجاب، وإذا سكت بدأه بالحديث.

وقد استرعت هذه الظاهرة أنظار بعض معاصريه، فسألوه عن سببها قائلين : « مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثا عنه؟

فقال : كنت إذا سألته أجابنى، وإذا سكتُّ ابتدأنى.

وقد هيأت له هذه الملازمة المباركة معرفة كاملة بأحوال

(١) راجع إعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ الطبعة المنيرية.

القرآن الكريم، وأسباب نزوله، وأين نزل؟

وكان عليٌّ - رضي الله عنه - إلى جانب ما سبق ذا فطنة وفهم، وصاحب منطق سديد، ولسان معبّر، حتى قال عن نفسه : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربى وهبنى قلبا عقولا ولسانا ناطقا. ».

وكان يستحث الناس أن يسألوه عن القرآن حتى يستفيدوا من علمه فينتفعون وينفعون غيرهم، وفى ذلك يقول : « سلونى عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، وفى سهل أم فى جبل » [1].

ولذلك كان علمه بحرا يغترف منه الكثيرون؛ ولأجل هذه المكانة المشهورة، والصلة الموثوقة بالنبوة، والعلم الذى انتفع به الآخرون، كان الكثيرون يتجهون إليه بما يشغلهم من أمور الدين، يستطلعون رأيه، ويسألونه عمن يأخذون أمور دينهم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما رُوِى عن أبى البحترى أنه قال : أتينا عليا فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ .

فقال : عن أيهم ؟

قلنا : حدثنا عن ابن مسعود.

قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك علما.

قلنا : حدثنا عن أبى موسى الأشعرى.

قال : صُبِغ فى العلم صبغة ثم خرج منها.

قلنا : حدثنا عن عمار بن ياسر.

قال : مؤمن نسى، وإذا ذكّر ذكر، خلط الإيمان بلحمه ودمه ليس للنار فيه نصيب.

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٣٣٨ طبع بيروت .

قلنا : حدثنا عن حذيفة.
قال : أعلم أصحاب محمد ﷺ بالمنافقين.
قلنا : حدثنا عن أبى ذر.
قال : وعى علما ثم عجز عنه.
قلنا : أخبرنا عن سلمان.
قال : أدرك العلم الأول والآخر، بحر لا يُنزع قعره، منا أهل البيت.
قلنا : فأخبرنا عن نفسك يا أمير المؤمنين.
قال : إياها أردتم ، كنت إذا سألت أُعطيت وإذا سكت ابتُدئت[1] .

ولم يكن هؤلاء فقط هم الذين بلغوا درجة الفتوى فى عهد رسول الله ﷺ، بل كان منهم أبو بكر وعمر وعثمان وآخرون.

ولكن على الرغم من أن عمر - رضى الله عنه - كان فى الذروة من علماء الصحابة إلا أنه كان إذا عرض له أمر من الأمور يحب أن يتثبت فيه، بالتعرف إلى رأى الصحابة الآخرين، وبخاصة رأى رجل مثل علىّ كرم الله وجهه، الذى كان عمر يعرف له علمه وقدرته الفائقة على الفصل فى القضاء، وتوفيقه فيه، فكان يقول إذا حضرت بعض القضايا المعضلة التى تحتاج إلى نظر ثاقب : «قضية ولا أبا حسن لها».

ومما يروى مما يشير إلى رغبة عمر فى التثبت أنه خرج يوما على الصحابة قائلا : أفتونى فى شىء صنعته اليوم.
فقالوا : وما هو يا أمير المؤمنين ؟
قال : مرت بى جارية لى فأعجبتنى، فوقعت عليها. وأنا صائم.

---
(١) راجع الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٣٦ ، وإعلام الموقعين جـ ١ ص ١٢ الطبعة المنيرية.

ويبدو أن عمر كان صائما صوم تطوع، وإلا فليس عمر ممن يخفى عليه حكم ذلك بالنسبة لصيام رمضان، وكأنهم رأوا أن ما فعله عمر أمراً خطيراً. وعبروا عن وجهة نظرهم مما بدا فى تعليقهم على تساؤل عمر رضى الله عنه، وخاضوا فى هذا الأمر وأكثروا فيه، وكان علىّ رضى الله عنه بين الجالسين، إلا أن عمر رضى الله عنه لاحظ أن عليا لم يدل برأيه، ولم يشارك القوم فيما ذهبوا إليه، بل ظل ساكتا وهم يتكلمون، فتوجه إليه بالسؤال قائلا : ما تقول يا ابن أبى طالب ؟

فأجاب على : جئت حلالا، ويوما مكان يوم.

وهذا يعنى أن ما أقدمت عليه أمر حلال، ويمكنك أن تتطوع بصيام يوم مكان هذا اليوم إن أردت.

وكأنما أزاحت فتوى علىٍّ كابوسا ثقيلا عن كاهل عمر الذى كان يشعر بإحساس المسلم أن ما أقدم عليه ليس حراما، ولكنه كان يحب أن يتثبت لنفسه، ويطمئن على مسلكه من باب الورع والحيطة، فقال لعلىٍّ تعقيبا على فتواه : « أنت خيرهم فتوى »[(١)].

وهذا الموقف يدلنا على الحيطة الشديدة التى كان يتميز بها عمر فى أمور الدين، وعلى فقه علىٍّ وفهمه الصحيح لروح الإسلام ومنهجه، ويذكّرنا بموقف قريب الشبه من هذا الموقف لعمر فى حياة النبى ﷺ حين قبّل امرأته فى شهر رمضان، وأقبل إلى الرسول ﷺ منزعجا يخشى أن يكون قد ارتكب حراما أو وقع فى الإثم، ويعبر عن هذه الخشية، وذلك الهلع الطريقة التى ألقى بها عمر الأمر إلى النبى ﷺ، حيث قال : هلكت يا رسول الله.

قال : « وما أهلكك ؟ »

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٣٣٩.

قال : قبلت امرأتى وأنا صائم.

ويهون النبى ﷺ الأمر على عمر بأن ضرب له مثلا بشىء ملموس محسوس يأتيه الناس كل يوم، ولا يشعرون بحرج حين يفعلونه، فيقول له : « يا عمر أرأيت لو تمضمضت، أيفسد صومك ؟ »

قال عمر : لا.

وينهى إليه النبى ﷺ الحكم فى بساطة قائلا : « إن هذه مثل تلك ».

هكذا كان أمر الفقه والفتوى يأخذان مسارهما أيام النبى ﷺ ولم يتغير الأمر كثيرا أيام الراشدين رضى الله عنهم، غير أن النبى ﷺ لما لحق بالرفيق الأعلى نهض أصحابه يبلغون الناس ما تلقوه عنه، ويجيبون عن تساؤلاتهم فى كل الأمور بما وعوا من هدى النبى ﷺ، ووقفوا عليه من توجيهاته فى أمور الدين والدنيا. سواء كان ما يسأل عنه يتعلق بأمور العقيدة أو العبادة أو السلوك والأخلاق والمعاملات العامة.

فماذا كان بعد عهد النبوة ؟ وما الدور الذى قام به الصحابة فى نقل ما تلقوه عن رسول الله ﷺ إلى من جاء بعدهم ؟

هذا ما ستجيب عنه الصفحات التالية إن شاء الله.

نشأة المدارس الفكرية بعد عصر النبوة

لم يكد عصر النبوة ينتهي ويبدأ عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذ الإسلام ينتشر خارج الجزيرة العربية في العراق والشام وفارس ومصر وسواها، وأقبل أهل البلاد على الإسلام يعتنقونه، ويتخذونه منهج حياة وانتشر الصحابة تبعا لذلك في البلاد التي دخلها الإسلام يرشدون الناس، ويعلمونهم، ويؤدون إليهم ما تلقوه من رسول الله ﷺ. وكان كل صحابي في موقعه بمثابة المرجع الذي يتجه إليه الناس كلما أرادوا أن يتعرفوا على توجيه الإسلام فيما يعرض لهم من قضايا ومشكلات فكان عبدالله بن مسعود في العراق، وعبد الله بن عباس في مكة، وزيد ابن ثابت وأبي بن كعب وسواهما في المدينة وعبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو وأبو الدرداء في الشام، ومعاذ بن جبل في اليمن، وعمرو بن العاص ومن معه من الصحابة في مصر، وهكذا توزع الصحابة رضوان الله عليهم في شتى الأقطار، وأخذ عن كل منهم عدد من التابعين الذين حملوا علمه وتلقوا على يديه ما يرويه عن رسول الله ﷺ، وكان ذلك النواة الأولى التي ترتب عليها نشأة عدد من المدارس الفكرية، والمذاهب الفقهية في عدد من المدن والعواصم الإسلامية.

ففي العراق نشأت مدرسة تأخذ عن عبدالله بن مسعود وتتابع خطاه في الفكر، وتترسم طريقه في الفهم والاستنباط، وعن عبدالله بن مسعود أخذ كثير من العلماء المعروفين، ومنهم شريح بن الحارث الكندي القاضي، وعلاَّمة التابعين عامر بن شراحبيل الشُعبي، وسواهما، ولم يكن ابن مسعود فقط هو الذي أخذ عنه أهل العراق، وإنما كان هناك آخرون سواه، ولكنه كان أشهرهم، وحسبه شرفاً، وإعلاء لمكانته أن رسول الله ﷺ قال

فى شأنه : « عليم معلم » وجعله أحد أربعة يؤخذ عنهم القرآن، فقال : خذ القرآن عن أربعة : عن ابن أم عبد « عبدالله بن مسعود »، وعن أبىّ بن كعب، وعن سالم مولى أبى حذيفة، وعن معاذ بن جبل. »

وقد قال عنه عقبة بن عمرو : « وما أرى أحدا أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع ولا نسمع، ويدخل ولا ندخل، وقال عبد الله بن مسعود عن نفسه:« ما نزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أنى أعلم أن رجلا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته »[1].

وقد قدم الإمام على رضى الله عنه الكوفة، وأخذ عنه أهلها، ونزل بها كذلك أبو موسى الأشعرى، وقد تبلورت هذه المدرسة حتى انتهت إلى مذهب أبى حنيفة ، الذى يقول عنه العلماء: مذهب « أهل الرأى ».

أما مدرسة مكة فكانت تقوم على فكر ابن عباس ومن استقر معه من الصحابة، إلا أن ابن عباس كان هو المؤثر على اتجاه علماء مكة ، لأن ابن عباس حينما يتكلم عن علم الإسلام ينصت إليه الناس جميعا، صحابة كانوا أو تابعين، وكيف لا ينصتون إليه، وقد قال النبى ﷺ فى شأنه : « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب، وفقهه فى الدين» وسماه محمد بن الحنفية ربانى هذه الأمة، وعن ابن عباس أخذ علماء مكة ، ومن أشهرهم عطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس.

وقد أدهش ابن عباس العلماء والفقهاء بسعة علمه، وقدرته على ترجمة المعانى التى تعبر عن حقيقة الإسلام فى كل

---

(١) راجع إعلام الموقعين جـ ١ ص ١٣.

ميادينه، حتى رأينا عبيد الله بن عبدالله بن عتبة يقول : « مارأيت أحدا أعلم بالسنة ولا أجلد رأيا، ولا أثقب نظرا حين ينظر من ابن عباس».

وقال عطاء بن أبى رباح : « ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها وأعظم، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واسع » .

وكان عمر رضى الله عنه يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ .

وكان زيد بن ثابت وأبى بن كعب بالمدينة إلى جانب الخلفاء والصحابة ينشرون علم رسول الله على أهل المدينة والقادمين إليها يريدون التزود من المعرفة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.

فحسبنا أن نعلم أن زيدا كان أشهر كتاب الوحى، وهو الذى وكل إليه أبو بكر رضى الله عنه كتابة القرآن فى مصحف واحد بعد أن استحر القتل بالقراء فى معركة اليمامة، وكان أيضا على رأس اللجنة التى أعدها عثمان رضى الله عنه لكتابة القرآن فى خلافته وكان مبرزا فى علم الميراث، وقد أثر عن النبى ﷺ فى شأنه قوله « أفرضكم زيد ».

مـدخـل
فقهـاء المدينـة

جد الصحابة فى نشر علم رسول الله ﷺ وتبليغه للناس استشعارا منهم بواجبهم نحو تبليغ الدعوة للناس جميعا، واستجابة لقول النبى ﷺ : « نَضَّرَ الله أمرءًا سمع مقالتى فوعاها فبلغها فرب مبلغ أوعى من سامع» وتلقى الجيل الذى يلى الصحابة عنهم علم رسول الله صلوات الله عليه وعرف هذا الجيل فى تاريخ الفكر الإسلامى باسم التابعين ، وكانت المساجد فى الأمصار المختلفة ميدانا لحلقات الدروس التى يتلقاها التابعون عن الصحابة اقتداء بما كان عليه رسول اللهﷺ فى مسجد المدينة وعرفت الأمصار المختلفة أعلاما من علماء التابعين حملوا العلم وقاموا بنشره وتعليم من يليهم ممن سموا بتابعى التابعين .

وقد ترك هؤلاء التابعون بصماتهم على مجالات المعرفة المختلفة؛ وكان من جيل التابعين فى المدينة جماعة عرفوا بفقهاء المدينة السبعة أو العشرة كانوا قد انتهى إليهم علم الصحابة، وأخذ الناس يتوجهون إليهم طالبين الفتوى، ويصدرون عن رأيهم فيما يعرض لهم من أمور الدنيا والدين وهؤلاء الفقهاء هم :

١ – سيد التابعين سعيد بن المسيِّب
٢ – عالم قريش عروة بن الزبير
٣ – راهب قريش أبو بكر بن عبدالرحمن
٤ – القاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه
٥ – عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
٦ – خارجة بن زيد بن ثابت ، أبوه زيد كاتب الوحى رضى الله عنه

٧ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٨ - سليمان بن يسار
٩ - أبو سلمة بن عبدالرحمن
١٠ - قبيصة بن ذؤيب
١١ - وأحيانا يضيفون إليهم أبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه

وقد أخذ هؤلاء علمهم عن علماء الصحابة ومفتيهم من أمثال: زيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وكان كثيرون غيرهم من الصحابة يأخذ الناس عنهم، ويفتونهم فى أمور دينهم إلا أنهم لم يكن لهم أصحاب يمثلون جيلا من التلاميذ يحملون عنهم إلى من يأتى بعدهم من الأجيال القادمة.

ومما روى حول هذا المعنى قول علىٍّ بن عبدالله : « لم يكن من أصحاب النبى ﷺ أحد له أصحاب حفظوا عنه، وقاموا بقوله فى الفقه إلا ثلاثة : زيد، وعبدالله، وابن عباس، فأعلم الناس بزيد ابن ثابت وقوله العشرة : سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبدالرحمن، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وأبان بن عثمان وقبيصة بن ذؤيب، وذكر آخر، وكان أعلم الناس بقولهم وحديثهم ابن شهاب، ثم بعده مالك بن أنس، ثم بعد مالك عبدالرحمن بن مهدى»[1] .

وكون هؤلاء الفقهاء هم الذين يصدر الناس عن آرائهم فيما يعرض لهم من قضايا الحلال والحرام قد تأكد من مسلك الناس الذين عاصروهم، فقد حدث ان خطب فتى ابنة عم له فدب

---

(١) راجع المعرفة والتاريخ تحقيق الدكتور ضياء العمرى جـ ١ ص ٣٥٣ ، وراجع أيضا تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

خلاف بين الأسرتين، فقال الفتى هى طالق إن نكحتها حتى آكل الغضيض - والغضيض طلع ذكر النخل - ثم ندم على ما كان منه، وأخذوا يبحثون عن مخرج مما وقعوا فيه، يروى أحداث هذه الواقعة وما تبعها من استطلاع آراء الفقهاء رجل يسمى المنذر على بن أبى الحكم قال : إن ابن أخيه خطب ابنة عم له، فتشاجروا فى بعض الأمر، فقال الفتى : هى طالق إن نكحتها حتى آكل الغضيض، ثم ندموا على ما كان منهم، فقال المنذر : أنا آتيكم من ذلك بالبيان، قال : فانطلقت إلى سعيد بن المسيب، فقلت له « إن رجلا من أهلى خطب ابنة عم له، فشجر بينهم بعض الأمر، فقال هى طالق إن نكحتها حتى آكل الغضيض.

قال ابن المسيب : ليس عليه شىء ، طلق ما لا يملك قال المنذر : ثم سألت عروة بن الزبير عن ذلك، فقال : ليس عليه شىء طلق ما لا يملك.

قال المنذر : ثم سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن، فقال ليس عليه شىء بما لا يملك.

قال المنذر : ثم سألت عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ذلك. فقال : ليس عليه شىء طلق ما لا يملك يقول المنذر : ثم سألت عمر بن عبدالعزيز قال : هل سألت أحدا ؟ قلت : نعم وسميتهم ثم رجعت إلى القوم فأخبرتهم بما سألت عنه(١) .

مجمع العلماء أو مجلس الفتوى :

قد حفلت كتب التاريخ والأخبار بما رواه العلماء عن هذه الفترة، واجتمعت كلمتهم على أن هؤلاء هم الذين كانوا تنتهى إليهم القضايا ليحكموا فيها، وكانوا يصدرون عن رأى جماعى

(١) راجع المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٣٥٢.

فإذا عرضت قضية من القضايا اجتمعوا، وأخذوا يستعرضونها من جوانبها المختلفة ثم يصدرون رأيا واحدا حولها وقد روى عن عبدالله بن المبارك قال : كان فقهاء أهل المدينة الذين كانوا يصدرون عن رأيهم سبعة : سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار وسالم بن عبدالله والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، قال : وكانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا جميعا فنظروا فيها، ولا يقضى القاضى حتى ترفع إليهم فينظرون فيها فيصدرون»[١] .

وكان احترام هؤلاء العلماء بعضهم لبعض احتراما شديدا، ويعرف كل منهم لأخيه مكانته، لا يغمطه ولا يحسده ولا ينفس عليه، ذلك أنهم كانوا جميعا يسعون جاهدين للوصول إلى الحق جهد المستطاع. ويجتهدون فى أن يصيبوا حكم الله، ويقتفون خطى نبيه ﷺ فيما يصدرون من أحكام، ولم يكونوا أصحاب وظائف يقومون بها للحكام وإنما كانوا يفعلون ذلك انطلاقا من إحساسهم بمسئولياتهم نحو أفراد المجتمع، وكان تداولهم فى القضايا بمنزلة أعمال المستشارين الذين يدرسون الأمور ويصدرون توصياتهم بمنطق عصرنا إلا أن المستشارين المعاصرين ليس لتوصياتهم صفة الإلزام، أما ما كان يعلنه فقهاء المدينة من رأى فهو ملزم لا يسع قاضيا ولا حاكما أن يخرج عليه أو يحكم بما سواه.

حلقات الدرس :

كان المسجد النبوى فى المدينة المنورة مقصد الراغبين فى العلم، والساعين إلى التزود منه، والباحثين عن المعرفة، كل هؤلاء يجدون فى ساحته طلبتهم، فى حلقات الدرس، ومجالس

(١) راجع المعرفة والتاريخ جـ ٢ ص ٤٧١.

الشيوخ، يجلسون إليهم يتلقون عنهم ويأخذون من معارفهم، إما عن طريق التلقى، أو عن طريق الإجابة عن أسئلة يتقدم بها طلاب العلم إلى الشيوخ فيجيبونهم إن كان الشيخ يأنس من نفسه المقدرة على إجابة السائل، فإن لم يكن عنده ما يجيب به السائل فإنه لا يجد غضاضة فى الإعلان عن عدم معرفته بهذا النوع من العلم الذى يريد السائل أن يتعرف عليه. ثم يشير عليه بأن يتحول إلى من يعتقد أنه أهل للإجابة عما سئل عنه.

ولم تكن حلقات الدرس مقصورة على لون معين من ألوان المعرفة، بل كان هناك ألوان شتى من المعارف، مثل الأخبار والأنساب، والحديث وعلومه، والتفسير وعلومه، والفقه والفتيا والقضاء، ينتقل الطالب بين هذه الحلقات يأخذ عن هذا وذاك ما يفيده، ويعينه على تكوينه العلمى مثله مثل النحلة فى البستان المزهر، تنتقل من زهرة إلى زهرة ، فتختار أعذب الجنى وأطيب الريح.

وكانت قد بدأت مجالس العلم هذه أول ما بدأت على يدى النبى ﷺ، وكان الصحابة جميعا طلاب هذه المجالس، التى كانت تشرق بنور الوحى، وتفوح بعطر النبوة، ثم لم يلبث رسول الله ﷺ أن لحق بالرفيق الأعلى، فجرى الصحابة على منهجه ، ونسجوا على منواله، وتعددت المجالس، وأقبل الناس على أصحاب رسول الله ﷺ، يأخذون عنهم القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، ويتتبعون أحكامه وقضاياه، ويبحثون عن هديه وتعاليمه فى أمور الدين والدنيا، وتوجيهاته فى العبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق، ونظم السياسة وأصول الحكم.

وأقبل الناس على الذين اشتهروا من الصحابة بالعلم والفتيا، وأخذوا عنهم حتى كان لهم تلامذة وأتباع يبلغون عنهم، ونشأ عن ذلك جيل جديد من أبناء المهاجرين والأنصار، يجدون فى

تحصيل العلم ونشره على الناس إلى أن انتهت الفتيا إلى مجموعة منهم كما أشرنا إليهم من قبل، وقد أشار إلى هذه الحركة العلمية أنبه طلاب العلم آنذاك ومن انتهت إليه علومهم فيما بعد، ذلك هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى حين قال : «كنت أجالس عبدالله بن ثعلبة بن صعير العذرى أتعلم منه نسب قومى، فأتاه رجل جاهل يسأله عن المطلقة واحدة ثنتين، ثم تزوجها رجل ودخل بها، ثم طلقها.

على كم ترجع إلى زوجها الأول ؟

قال : «لا أدرى، اذهب إلى ذلك الرجل، وأشار إلى سعيد بن المسيب، فلزمت سعيدا، فكان هو الغالب على علم المدينة والمستفتى فيهم، وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وسليمان بن يسار وكان من العلماء، وعروة بن الزبير بحر من البحور، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة. فمثل ذلك أبو سلمة بن عبدالرحمن، وخارجة بن زيد، والقاسم وسالم، فصارت الفتوى إلى هؤلاء، وصارت من هؤلاء إلى سعيد بن المسيب وأبى بكر ابن عبدالرحمن وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، على كفٍّ من القاسم عن الفتوى، إلا أن لا يجدَّ بدا»[1] .

ومن التأمل فيما قاله الزهرى وسواه يتبين أنه كان هناك تخصص دقيق لدى الشيوخ، منهم من يتخصص فى الأنساب والأخبار، ومنهم من يتخصص فى الفتوى والأحكام الفقهية وهؤلاء كانوا أكثرهم نشاطا وأنبههم شأنا، وأكثرهم طلابا وأتباعا.

وقد ذكر أكثر من واحد أسماء هؤلاء الفقهاء الذين آلت إليهم أمور الفتيا، وفيما يلى عرض موجز لكل منهم.

---

(١) طبقات ابن سعد قسم ٢ جـ ٢ ص ١٣١ طبعة الشعب.

سيد التابعين

سعيد بن المسيب

(٩٤هـ)

فقيه الفقهاء وسيد التابعين سعيد بن المسيِّب القرشي المخزومي، ولد لسنتين من خلافة عمر رضي الله عنه، وقد رَوى عن عدد من الصحابة وبعض أمهات المؤمنين وكان أعلم الناس بقضايا رسول الله ﷺ وقضاء أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، حتى قال عن نفسه : « ما أحد أعلم بقضاء قضاه رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر وعمر مني »[١] .

وروى عنه كثير من كبار العلماء، ومن أبرز من تلقى العلم عنه محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، حتى قال عنه : «جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علما غيره»[٢] .

وقد لفت تميزه في العلم والفقه نظر بعض الصحابة والتابعين حتى أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وجد رجلا سأله عن مسألة فقال له : إيت هذا فسله - يعني سعيدا - ثم ارجع إليَّ فأخبرني، ففعل ذلك وأخبره، فقال ابن عمر لمن حوله لما أخبر بإجابة سعيد معبرا عن إعجابه بعلمه : ألم أخبركم أنه أحد العلماء» وقال لأصحابه عن سعيد : «لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرَّه»[٣] ، وكان يرسل إليه يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وكان اشتهاره بالعلم وتقدمه فيه قد شاع على ألسنة الناس، وكان الرجل يأتي إلى المدينة المنورة فيسأل عن أفقه أهلها وأعلمهم فيوجه إلى سعيد، ومن ذلك ما روى عن ميمون بن

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢١. (٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١١١.
(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧٥

مهران قال : « أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها، فدفعت إلى سعيد بن المسيب »[١] .

ويقول شهاب بن عباد العصرى : «حججت فأتينا المدينة، فسألنا عن أعلم أهلها، فقالوا : سعيد » .

وقد بلغ من الثقة فى علمه وفقهه أنه كان يفتى والصحابة أحياء وقد أعانه على الوصول إلى تلك المنزلة ما كان يتمتع به من حافظة واعية وتفان فى تحصيل ألوان المعارف، حتى إنه كان لا ينسى من يلقاه من طلابه ، فقد حدث عمران بن عبدالله الخزاعى قال : « سألنى سعيد بن المسيب فانتسبت له ، فقال : «لقد جلس أبوك إلىّ فى خلافة معاوية» ويقول : « والله ما أراه مرّ على أذنه شيء قط إلا وعاه»[٢].

وقال عنه ابن خلكان : « كان سعيد المذكور سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع»[٣].

وقال عن نفسه : «.كنت أرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد»[٤] .

وكان فيه صلابة ورثها عن آبائه وأجداده، فقد روى عنه أن جده حزنا أتى النبى ﷺ، فقال : ما اسمك ؟

قال : حزن.. قال : بل أنت سهل.

قال : يا رسول الله اسم سمانى به أبواى، وعرفت به فى الناس فسكت عنه النبى ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٥.
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٥.
(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٥
(٤) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١١١.

قال سعيد : «فمازلنا تعرف الحزونة فينا أهل البيت»[١] .

وقد جرَّت عليه هذه الصلابة كثيرا من المتاعب حيث كان دائما على غير وفاق مع الولاة والحكام حاشا عمر بن عبدالعزيز وكان لا يأتى أحدا من الولاة، وكان عمر بن عبدالعزيز يعرف له مكانته، فكان إذا عرض له قضية يبعث إليه يسأله عن رأيه، ثم يأخذ به، وذات مرة بعث إليه من يسأله عن رأيه فى قضية من القضايا، ولكن الرسول دعاه إلى التوجه إلى عمر، فلما ذهب إلى عمر اعتذر له وقال أخطأ الرسول : إنما أرسلناه يسألك فى مجلسك، وكان عمر يقول : ما كان بالمدينة عالم إلا يأتينى بعلمه وكنت أوتى بما عند سعيد بن المسيب[٢] .

وكان سعيد قد أخذ عن أبى هريرة كل ما رواه عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان قد تزوج ابنة أبى هريرة رضى الله عنه.

أخلاقه وعبادته :

كان سعيد رجلا وقورا له هيبة عند مجالسيه فكان يغلب عليه الجِّد، ولو نظرت إليه لخيل إليك أنك أمام رجل ممسك بموازين الحق والعدل بين يديه، قد تكفَّل بحراستها والقيام عليها، مدرك لمدى مسئولية الأمانة التى تحملها، فلا يجامل، ولا يغمض عينيه عن شىء لا يراه صحيحا، فيعلن إنكاره له، غير مبال بما يجره عليه ذلك من أذى، ومن أجل ذلك كانت علاقته بالولاة والحكام علاقة يشوبها التوتر والتربص وقد مرّ عليه أكثر من أربعين سنة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ١٢٢.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ١٢٢. و سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٥.

لا يرفع الأذان إلا وهو فى المسجد ينتظر الصلاة، وكان دائما فى الصف الأول ولم يفته الجماعة إلا يوم أن عاقبه والى المدينة وطوف به فى طرقات المدينة، وجاء إلى المسجد، وقد انصرف الناس من الصلاة، فقال : هذه وجوه ما رأيتها منذ أربعين سنة وقد حج كما قال بضعا وعشرين حجة[١] .

وكان سعيد له تجارة تدرُّ عليه دخلا يكفيه ليعيش عيشة راضية، ولهذا لم يكن يأخذ عطاء من الدولة، لأنه كان يرى فى قبول عطاء الدولة حجرا على رأيه، وتقييدا لحريته. وكان عنده من يقوم بأمر تجارته، فلا يشغله أمرها عن عبادته وعلمه، وكان يدعو إلى اكتساب المال من طرقه المشروعة، ليتمكن من صلة الرحم، وأداء الأمانة، وصيانة الكرامة، والاستغناء عن الخلق، ومما أثر عنه فى ذلك قوله : « لاخير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطى منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس »[٢] .

وخير ما يصور وجهة نظره فى امتلاك المال قوله : «اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه، ولا محبة للدنيا، ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان، حتى ألقى الله فيحكم فىّ وفيهم، وأصل منه رحمى، وأؤدى منه الحقوق التى فيه. وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار»[٣] .

وقد نما ماله حتى ترك عند وفاته ثلاثة آلاف دينار، وقال :

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٤.　(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠١.
(٣) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠١.

والله ما تركتها إلا لأصون بها دينى وحسبى، وكان يقول : «من استغنى بالله افتقر الناس إليه»[١] .

ولهذا كان سعيد فى بحبوحة من العيش، وقد وضح أثر ذلك فى مظهره وملبسه، فقد كان حريصا على نظافة ملبسه وحسن هيئته تحدثا بنعمة الله عليه، وكان بمسلكه ذلك يعطى المثل العملى للعالم فى نزاهته ونظافته، وحسن هندامه اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كان أجمل الخلق منظرا، وأعجبهم مظهرا، وأنظفهم ثوبا، وكان يمشط شعره، ويدهن الطيب حتى تشم رائحته العطرة من بعيد، وإذا مسَّ أحد يده يبقى أثر الطيب عالقا بها مدة طويلة، وكل تعاليمه ﷺ وتوجيهاته تعلم الناس أن يحرصوا على بهاء المنظر، وجمال الصورة، وطيب الرائحة، وحسن السمت[٢] . ولهذا من فقه الرجل أن يقتدى برسول الله ﷺ، لأن القرآن الكريم يقول : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٣] . وسعيد رحمه الله كان حريصا على أن يقفو خطى رسول الله ﷺ، ويعلم الناس سنته وهديه.

موقف سعيد من أحداث عصره :

كان الأمويون والزبيريون يتنازعون على الحكم فى أيام سعيد، وكانت المدينة أحيانا تكون تحت حكم الأمويين وأحيانا تحت حكم الزبيريين، وكان الوالى يحاول أن ينفذ سياسة الجهة التى ينتمى إليها، وكان مقر حكم الزبيريين بمكة ومقر حكم الأمويين بدمشق،

---

(١) راجع طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٤٣. (٢) راجع مسار الدعوة فى العهد المكى ص ١٧
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢١.

ولم يكن سعيد راضيا عن هؤلاء ولا أولاء.

وحدث أن كان والى المدينة فى فترة يدعى جابر بن الأسود ابن عوف الزهرى من طرف الزبيريين، ودعا الناس إلى البيعة لعبدالله بن الزبير، وكان سعيد يرى أن الأمور غير مستقرة وليس من الحكمة المبايعة فى ذلك الظرف غير المناسب، ولذلك لما دعاه الوالى إلى البيعة قال : « لا.. حتى يجتمع الناس»، فكبر على الوالى موقف سعيد وضربه ستين سوطا، ولما بلغ ما صنع ابن الزبير لم يرض بما صنعه واليه وكتب إليه يلومه على ما صنعه مع سعيد»[1] .

ويبدو أن الوالى كان قد نقم على سعيد أنه عاب عليه أن يتزوج، قبل أن تنتهى عدة الزوجة الرابعة التى طلقها، ويرى سعيد أنها مادامت فى العدة فهى فى حكم الزوجة، ولا يرى صحة الزواج إلا بعد انتهاء العدة وقد أدرك سعيد أن الوالى يريد أن يعاقبه على إعلانه عدم صحة زواجه، ولذلك لما كانت السياط تنهال على سعيد صاح معلنا عن رأيه قائلا : والله ما ربعّت على كتاب الله، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هى إلا ليال فاصنع ما بدالك، فسوف يأتيك ما تكره، ولم يمكث إلا قليلا حتى قتل ابن الزبير[2] .

وليس معنى امتناع سعيد عن البيعة لابن الزبير أنه كان يوالى الأمويين، بل كان يواجه الخطأ مهما كان مصدره، فكان إذا رأى

---

(١) ابن سعد جـ ٧ ص ١٢٢ (٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٩.

أمرا غير سديد رفضه وأعلن عن عدم قبوله وامتنع عن الاستجابة له مهما كلفه ذلك من أمر.

وكان الوضع السياسي قد تغير في المدينة بعد أن قتل ابن الزبير، وخلص الأمر للأمويين، وكان هناك وال أموى هو هشام ابن إسماعيل المخزومي، وفي عام ٨٤ هـ توفي عبدالعزيز بن مروان وكان مبايعا له بولاية العهد بعد عبدالملك، فلما مات عقد عبدالملك بولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، ودعا إلى أخذ البيعة لهما، وأخذ والي المدينة البيعة إلا أن سعيدا أبى أن يبايع محتجا بأنه لا يجوز أن تكون بيعتان معا، فكتب الوالي إلى عبدالملك يخبره باستجابة أهل المدينة إلى المبايعة وامتناع سعيد، فكتب عبدالملك إلى واليه هشام أن يعرضه على السيف، فإن لم يتراجع طلب إليه أن يجلده خمسين جلدة، وأن يطوف به أسواق المدينة، ويبدو أن الوالي كان يرغب في أن لا يفعل ذلك بسعيد، فأطلع بعض زملاء سعيد من الفقهاء على خطاب عبدالملك، لعلهم يحاولون إقناعه بأن يستجيب للبيعة، ولا يتعرض لهذا الموقف الذي لا يحب أن ينسب إليه، وهو لا يستطيع أن يتغاضى عن تنفيذ ما جاء في رسالة عبدالملك خشية منه، وإن كانت بعض الروايات تقول إنه كان قد بدأ بإيقاع العقاب بسعيد لما امتنع عن البيعة، وأن عبدالملك بعث إليه يلومه على فعله بسعيد، ولكننا نميل إلى الأخذ بالرواية التي تقول إن عبدالملك هو الذي أمر بإيقاع العذاب بسعيد حتى لا يشجع التهاون معه غيره على الامتناع عن المبايعة، وقد يضاف إلى ذلك أن عبدالملك كان في نفسه شيء من سعيد لأنه رفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبدالملك، كما سنبين ذلك فيما بعد.

فلما أطلع الوالى الفقهاء على كتاب عبدالملك فى شأن سعيد توجه عروة بن الزبير وسالم بن عبدالله وسليمان بن يسار إلى منزل سعيد، وقالوا : إنا قد جئناك فى أمر : قد قدم كتاب فيك من عبدالملك بن مروان إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا، فأعطنا إحداهن، فإن الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب، فلا تقل لا ولا نعم.

قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيِّب ما أنا بفاعل، وكان إذا قال لا لم يطيقوا عليه أن يقول نعم.

قال : مضت واحدة، وبقيت اثنتان.

قالوا : فتجلس فى بيتك، فلا تخرج إلى الصلاة أياما، فإنه يقبل منك، إذا طلبت فى مجلسك فلم يجدك.

قال : وأنا أسمع الأذان فوق أذنى : حى على الصلاة حى على الفلاح، ما أنا بفاعل.

قالوا : مضت اثنتان، وبقيت واحدة، واقترحوا عليه أن ينتقل من مجلسه إلى غيره، فإذا أرسل الوالى إليه فلم يجده أمسك عنه.

قال : فرقا «خوفا» لمخلوق، ما أنا بمتقدم لذلك شبرا، ولا متأخر شبرا.

فخرجوا عنه وخرج إلى الصلاة، صلاة الظهر، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه، فلما صلى الوالى بعث إليه فأتى به فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك.

قال سعيد : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين.

فلما رآه لا يجيب أخرج إلى السدَّة، فمدت عنقه وسلت عليه السيوف، فلما رآه قد مضى «ولم يتراجع» أمر به. فجرد من ثيابه

فإذا عليه تبان شعر «كساء يلبس ليستر العورة».

وكان بعض غلمان الوالى قد أخبروه أنه سيقتل فارتدى ذلك الكساء حتى لا تنكشف عورته إذا قتل.

فقال : لولا ظننت أنه القتل ما لبسته، وأمر الوالى فضرب خمسين سوطا، ثم أمر أن يطاف به فى أسواق المدينة.

فلما رده، والناس منصرفون من صلاة العصر قال : إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة[1] .

وذلك لأنه تعود أن يكون فى المسجد قبل الأذان ينتظر الصلاة، وكان مكانه دائما فى الصف الأول.

ويبدو أن المحاولة قد تكررت مع سعيد قام بها آخرون من أصحابه وأقرانه، ولكنه كان يصر دائما على عدم الاستجابة، والذى يدرس حياة سعيد بن المسيب يعرف أن الرجل كان إذا قال لا، لا يمكن أن يثنيه عن قوله أحد ولذلك كانت علاقته سيئة ببنى مروان، وكان يعرف عنه عدم رضاه عنهم، لأنهم لم يلتزموا التزاما كاملا بما يدعو إليه الإسلام فى نظام الحكم القائم على مبدأ الشورى.

السجن والمقاطعة

بعد أن عوقب سعيد بالجلد والتشهير به فى طرقات المدينة، زج به إلى السجن ، وقضى به فترة لم تنقطع فيها محاولة الوالى أن ينتزع منه الموافقة على البيعة للوليد ولسليمان أملا فى أن يستجيب ويخلى سبيله، وكان يستعين على الوصول إلى ما يريد

---

(١) راجع حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧١، ١٧٢، وراجع كذلك سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٣١.

بكل من له صلة قرابة بهما أو مودة؛ فقد توجه إلى السجن أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أحد الفقهاء السبعة، وتكلم معه في موقفه من الوالي، وموقف الوالي منه، ولام سعيدا على ما أظهره من عدم المبالاة بالوالي على الرغم من مداراته له ويبدو أن الحوار بينهما قد اشتد حتى ضاق به سعيد، كما يتبين من المحاورة التالية :

قال له أبو بكر : إنك خرقت به «يعني استهزأت به».

قال سعيد : يا أبا بكر، اتق الله وآثره على ما سواه. وأخذ أبو بكر يردد اتهامه لسعيد قائلا : إنك خرقت به ولم ترفق حتى ضاق به سعيد، وعاودته حدته فقال له : إنك والله أعمى البصر أعمى القلب.

ولما خرج أبو بكر من عند سعيد بعث إليه هشام يسأله إذا كان سعيد قد لان.

فقال أبو بكر : والله ما كان أشد لسانا منذ فعلت به ما فعلت ، فاكفف عن الرجل[1] .

ومن دراسة ما روى حول الفترة التى قضاها سعيد فى السجن يمكن أن نتعرف على بعض الحقوق التى كانت تقدم للسجناء فى ذلك العهد المتقدم، فلم يكن هناك حظر على أهل السجين أن يقدموا إليه من الطعام والملابس والفراش ما يريدون بدون أن يتدخل الحكام فى ذلك، ونحن نعرف من صحبتنا لحياة سعيد فى الصفحات السابقة أنه كان فى بحبوحة من العيش، ولذلك لما حبس صنعت له ابنته طعاما كثيرا، وبعثت به إليه، فلما جاءه ما أعدت ابنته دعا برجل يسمى أسلم بن أمية، وقال له :

---

(١) راجع سيد التابعين ص ٣٧ ـ ٣٨.

اذهب إلى ابنتى ، فقل : لا تعودى لمثل هذا أبدا، فهذه حاجة هشام ابن اسماعيل، يريد أن يذهب مالى، فأحتاج إلى ما فى أيديهم، وأنا لا أدرى ما أحبس، فانظرى إلى القوت الذى كنت آكل فى بيتى. فابعثى به إلى[١] .

وقدم هذه النصيحة إلى رجل آخر كان معه فى السجن، وكان أهله يبعثون إليه بألوان الطعام، فنصحه سعيد قائلا : أتريد أن تجلس هاهنا، كف عنك هذا.

ونستطيع أن ندرك مما سبق مدى الحرية التى كان يتمتع بها السجناء، مما يرجو نزلاء السجون فى أيامنا هذه أن يتمتعوا بمثله وكان يسمح لهم بالزوار بدون حرج، فقد حدث عبدالله بن يزيد الهذلى قال : دخلت على سعيد بن المسيّب السجن، فإذا هو قد ذبحت له شاة، فجعل الإهاب على ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضبا رطبا «نباتا رطبا» وكان كلما نظر إلى عضديه، قال : اللهم انصرنى من هشام[٢] .

وبعد أن خرج من السجن لم يترك وشأنه بل حرم عليه الجلوس إلى أحد، وحيل بين الناس وبين الجلوس إليه بما نسميه فى عرفنا المعاصر بالمقاطعة الاجتماعية (العزل).

ولكنه كان يذهب إلى مجلسه كعادته، ولم يكن يجرؤ أحد على مجالسته، فقد دخل مسجد المدينة رجل يسمى يونس القزى، فوجد سعيدا يجلس وحده، فتساءل ما شأنه، فأخبر أنه نهى أن يجالسه أحد وكان سعيد لا يحب أن يؤذى أحد بسببه، فكان إذا جلس إليه شخص أخبره أن الوالى منع الناس من مجالسته، وأنه يخشى أن يناله أذى بسبب هذه المجالسة ، كان يقول ذلك لمن لا يعرف الحظر إبراءً لذمته[٣] .

---

(١) راجع المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٤٧٤، وطبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٢٧.
(٢) راجع سيد التابعين ص ٢٧.
(٣) راجع وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٧، وسيد التابعين ص ٣٨.

اعتزازه بنفسه :

كان سعيد لا يذهب للقاء أحد من خلفاء بني مروان ولا يستجيب لهم إذا دعوه.

فقد حدث ذات يوم أن كان عبدالملك بن مروان بالمدينة وأراد أن يستريح في وقت الظهيرة، ولكن النوم استعصى عليه، فطلب إلى حاجبه أن يستدعى له أحدا ممن في المسجد يتحدث إليه، وخرج الرجل إلى المسجد، فوجد سعيدا في حلقته، فوقف بحيث يراه سعيد، ثم أشار إليه بإصبعه يستدعيه، ليذهب معه، وانطلق الحاجب ظانا أن سعيدا سيتبعه، ولكنه لم يتحرك من مكانه.

فقال الحاجب « لا أراه فطن، ثم عاد إليه ودنا منه، ثم غمزه وقال : ألم ترني أشرت إليك؟

قال سعيد : وما حاجتك ؟

قال : أجب أمير المؤمنين.

فقال : إليّ أرسلك ؟

قال : لا، ولكن قال : انظر بعض حداثنا، فلم أر أحدا أهيأ منك.

قال : اذهب فأعلمه، أني لست من حداثه.

فخرج الحاجب، وهو يقول ، ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونا، وذهب فأخبر عبد الملك.

فقال عبدالملك : ذاك سعيد بن المسيِّب، فدعه[1] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي رفض فيها سعيد لقاء عبدالملك، فقد قدم المدينة بعد أدائه فريضة الحج، ووقف على باب المسجد، وأرسل إلى سعيد بن المسيِّب

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٦.

رجلا يدعوه إليه، وطلب إليه ألا يحركه فأتاه الرسول، وقال : أجب أمير المؤمنين واقفا بالباب، يريد أن يكلمك.

فقال سعيد : ما لأمير المؤمنين إلىّ حاجة، ومالى إليه حاجة، وإن حاجته لى غير مقضية.

فرجع الرسول إلى عبدالملك وأخبره بما سمع، فقال ارجع ، فقل له : إنما أريد أن أكلمك. ولا تحركه فرجع إليه فقال : أجب أمير المؤمنين فرد عليه مثلما رد عليه المرة الأولى.

واشتد الغيظ بالرسول فقال : لولا أنه تقدم إلى فيك ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذا.

فقال سعيد : إن كان يريد أن يصنع بى خيرا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أحل حبوتى[1] حتى يقضى ما هو قاض.

فعاد الرجل إلى عبدالملك فأخبره، فقال : رحم الله أبا محمد أبى إلا صلابة[2] .

وقد تكرر نفس الموقف مع الوليد بن عبدالملك لما آلت إليه الخلافة. فقد وصل إلى المدينة، ودخل المسجد فرأى شيخا قد اجتمع عليه الناس.

فقال : من هذا ؟

قالوا : سعيد بن المسيّب.

فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول.

فقال : أجب أمير المؤمنين.

فقال سعيد : لعلك أخطأت باسمى، أو لعله أرسلك إلى غيرى

---

(١) يعنى لا أتحرك من مكانى.

(٢) راجع سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٧، وابن سعد جـ ٥ ص ١٢٩.

فرد الرسول، فأخبره، فغضب وهم به.

فتدخل الناس، وقالوا : يا أمير المؤمنين . فقيه المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه، وما زالوا به حتى هدأ غضبه، وتركه وشأنه[1] .

أسرة سعيد :

كان سعيد قد تزوج ابنة أبى هريرة، وكانت قد أخذت عن أبيها كثيرا مما رواه عن رسول الله ﷺ، ويمكن أن نتصور منزلا وأسرة ربتها ابنة أبى هريرة وربها سعيد بن المسيّب كيف تمضى الحياة فيه، وكيف ينشأ أبناء هذا البيت، إن التاريخ يحدثنا أن سعيدا كان له ابن يسمى محمدا ولذلك كانوا ينادونه بـ «أبو محمد» وأن محمدا هذا كان مرجعا فى علم الأنساب حتى إن سعيدا كان إذا جاءه من يسأل عن الأنساب أحاله إلى ابنه محمد وكان له ابنة، حاول عبدالملك كما سبق أن أشرنا أن يزوجها لابنه الوليد، ولكن سعيدا لم يوافق على هذا الزواج لاعتبارات كثيرة فى مقدمتها عدم رضاه عن سياسة بنى مروان وسعيد هذا الذى يرفض أن يزوج ابنته إلى الوليد بن عبدالملك ولى العهد والخليفة فيما بعد يعرض ابنته هذه على طالب فقير من طلابه لا يملك أكثر من ثلاثة دراهم فى قصة مثيرة، ولعلنا نتساءل قبل أن نعرض الصورة التى تم بها الزواج عن مدى ما كانت تتمتع به ابنة سعيد من العلم والجمال، أما العلم فكانت قد أخذت علم أبيها حتى إنها فى شهر العسل من زواجها أغنت زوجها عن التردد على حلقة أبيها، وأنها كانت على جانب كبير من الجمال أما قصة الزواج فيرويها كُثَيِّرٌ

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٧.

ابن أبى وداعة تلميذ سعيد فيقول : كنت أجالس سعيد بن المسيِّب، ففقدنى أياما، فلما جئته قال : أين كنت ؟

قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها.

فقال : ألا أخبرتنا. فشهدناها ؟ ثم قال : هل استحدثت امرأة؟

فقلت : يرحمك الله، ومن يزوجنى، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟

قال : أنا.

فقلت : وتفعل ؟!

قال : نعم ، ثم تحمَّد وصلى على النبى ﷺ وزوجنى على درهمين أو ثلاثة.

فقمت، وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلى، وجعلت أفكر فيمن أستدين، فصليت المغرب، ورجعت إلى منزلى، وكنت وحدى صائما، فقدمت عشائى أفطر، وكان خبزا وزيتا، فإذا بابى يقرع، فقلت : من هذا؟

فقال : سعيد.

فأفكرت فى كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيِّب، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد فظننت أنه قد بدا له «يعنى غيَّر رأيه». فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إلىَّ فآتيك؟

قال : لا، أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلا عزبا، فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هى قائمة من خلفه فى طوله، ثم أخذ بيدها. فدفعها فى الباب، ثم رد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت

القـصعـة في ظل السراج لكـي لا تراها، ثم صعـدت إلى السطح، فرميت الجيران، فجاءوني، فقالوا : ما شأنك؟!

فأخبرتهم، ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت، وقالت : وجهك من وجهي حرام. إن مسستهـا قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثًا، ثم دخلت بـها، فـإذا هي مـن أجـمل الناس، وأحـفظ الناس لكتـاب الله، وأعلمـهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعـرفـهم بحق زوج، فمكثت شهرا لا آتـي سعيد بن المسيب، ثم أتيتـه، وهو في حلقته، فسلمت، فردَّ على السلام، ولم يكلمني حـتى تقوض المجلس. فلما لم يبق غيري. قال : ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: خيرا يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو.

قال : إن رابك شيء فالعصا.

فانصرفت إلى منزلي ، فوجه إلى بعشرين ألف درهم[1].!

تفصيلات أخرى تكشف عن بعض العـادات الاجتماعية في ذلك العصر الذي سـجلناه عن أحداث هذا الزواج هو ما جـاء في كتاب الحلية لأبي نعـيم الأصفهانـي، وسير أعلام النبـلاء لشمس الدين الذهبي ولكن هناك تفصيلات أخرى تكشف عن جوانب ذات مغزى في الحياة الاجتـماعية في ذلك العصر جاء بها صـاحب كتاب فقه الإمام سـعيد بن المسيِّب، خلاصـتها : أن ابن أبي حـرملة ، لما عرف أن الطـارق سعيد بن المسـيب قد اسـتولى عليـه الخوف، وارتعـدت فـرائصه، وقـال : لعل الشـيخ ندم فـجـاء يستـقـيلني «يستعفيني» يقول : فخـرجت إليه أجر رجلي، وفتحت الباب، فإذا أنا بشابة مـتلفعة بساج «الطيلسـان الأخضر» ودواب عليهـا متاع

(١) راجع الحلية جـ ٢ ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وسير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

وخادمة بيضاء، فسلم عليَّ، ثم قال : يا عبدالله هذه زوجتك.

فقلت مستحييا منه : يرحمك الله، كنت أحب أن يتأخر ذلك أياما.

فقال لى : لم ؟ ألست أخبرتنى أن عندك أربعة دراهم ؟

قلت : هو كما ذكرت لك. ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك.

قال : إنها إذن عليك لغير ميمونة، وما كان الله يسألنى عن عزبتك الليلة، وعندى لك أهل.

هذه زوجتك، وهذا متاعكم، وهذه خادمة تخدمكم، معها ألف درهم نفقة لكم، فخذها يا عبدالله بأمانة الله، فوالله إنك لتأخذ صوّامة قوّامة، عارفة بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، فاتق الله فيها، ولا يمنعك مكانها منى إن رأيت ما تكره أن تحسن أدبها. ثم سلّمها إلىّ ومضى.

قال ابن أبى وداعة : فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله تعالى، ولا أعرف بسنة رسول الله ﷺ، ولا أخوف لله عز وجل منها، قد كانت المسألة المعضلة تعيى الفقهاء، فأسألها عنها، فأجد عندها منها علما.

ثم قال : فأقمت عندها ما شاء الله، ثم رزقنى الله منها حملا، وكان سعيد بن المسيِّب كثيرا ما يسألنى عنها، فيقول : ما فعلت تلك الإنسانة؟ فأقول : خيرا.

فيقول : يا عبدالله إن خفّ عليك أن تزيرناها فافعل[١] .

وقصة هذا الزواج تكشف عن كثير من القيم الاجتماعية، التى كانت تسود المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت المبكر، وتحكم

---

(١)راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ١٠٩ ـ ١١١ تأليف الدكتور هاشم جميل عبدالله وكذلك سيد التابعين ص ٥٤ ـ ٥٥.

علاقات الناس، وتوجه نظرتهم إلى الحياة، فلم يكن هناك مغالاة فى المهور، ولم يكن هناك إرهاق لمن يرغب فى الزواج بكثرة المطالب التى تعجز عنها امكاناته، بل كان هناك تقليد حميد يجعل الحياة سهلة على من يبنى أسرة جديدة، إذ كان أهل العروس يقدمون لها ولزوجها ما يعينهما على بدء حياتهما فى هدوء وسلام .

ومن تفاصيل الحوار الذى دار بين سعيد وزوج ابنته رأينا أن سعيدا استأذنه فى أن يسمح لها بزيارة بيت أبيها من وقت لآخر، ويبدو أن سعيدا كانت صلاته الاجتماعية محدودة فقد روى عنه أنه قال : ما ضمنى سقف بيت بالمدينة إلا أنى كنت أزور بنتا لى.

وكانت زوجة سعيد حريصة على أن يتهيأ لابنتها حياة زوجية هادئة، وكانت أيضا على جانب كبير من الإلمام بأحكام الدين، والعلم بسنة رسول الله ﷺ، وحسبها أنها ابنة أبى هريرة صاحب رسول الله ﷺ، وزوجة سعيد بن المسيِّب، ويبدو أنها لم تكن تذهب لزيارة ابنتها إلا نادرا بدليل أن زوج ابنتها لم يرها فى داره إلا أثناء وضعها ويتأكد ذلك من متابعة الحوار التالى :

قال ابن أبى وداعة : رجعت إلى الدار، وإذا بها شخص ما رأيته قط. فرجعت موليا.

فنادتنى من ورائى : يا عبيدالله، ادخل فقد أحلّ الله لك هذه النظرة.

فقلت : ومن أنت يرحمك الله ؟

قالت : أنا أم الفتاة يا عبدالله كيف رأيت أهلك ؟

قلت : جزاكم الله عن أهل بيتى خيرا، لقد ربيتم فأحسنتم، وأديتم فأحكمتم.

فقالت : يا عبدالله، لا يمنعك مكانها منا أن ترى بعض ما تكره، فتحسن أدبها، يا عبدالله، لا تملكها من أمرها ما جاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة، وليست قهرمانة[١] ، ولا تكثر التبسم فى وجهها فتستخف بك، بارك الله لكما فى المولود، وجعله مباركا خائفا لله، ووقاه فتنة الشيطان. وجعله شبيها بجده سعيد، فوالله إنى لزوجته منذ أربعين سنة. ما رأيته عصى الله تعالى معصية، ثم خرجت، فلم أر لها وجها ثمانى عشرة سنة حتى قضى عليها الموت[٢] .

صور من تعامله مع الناس :

كان لسعيد مولى يتولى أمر تجارته وكان يخوض معه فى الحديث، وينبسط معه فى القول، راجيا أن يدفعه ذلك إلى الأمانة فى المعاملة ، والصدق فى الحديث ، ومما روى عنه حول ذلك أنه كان يقول له : اتق الله ولا تكذب علىّ كما كذب مولى ابن عباس على ابن عباس، وكان يحاسبه على الدانق فى تجارته فى الوقت الذى يرفض فيه أن يأخذ ثلاثين ألفا اجتمعت له عند بنى مروان من العطاء الذى كان له.

ومما يؤخذ عليه على الرغم من عبادته وتقواه أنه كان أحيانا يبدو عليه الاعتزاز بالأرومة، والأصل مما يعتبر أمرا غريبا عنه فى مثل علمه وتقواه، إلا أنه كان لا يلبث أن يعود إلى طبيعته حينما يتنبه إلى أن مثل هذه النظرة لا تليق برجل فى مثل مكانته من العلم والسن فقد روى رجل قرشىّ قال : كنت أجالس سعيد بن المسيِّب فقال لى يوما : من أخوالك ؟

---

(١) قهرمانة كلمة فارسية، ومعناها المتصرف.
(٢) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٢.

فقلت : إن أمى فتاة «يعنى أمة».

قال : كأنى نقصت من عينيه ، فـأمهلت حتى أتى عليه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، وخرج من عنده.

فقلت : يا أبا عبدالله، من هذا؟

فقال : سبحان الله، أتجـهل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبدالله ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

فقلت : من أمه ؟

قال : فتاة.

ثم أتى القاسم بن محمد بن أبى بكـر الصديق رضى الله عنه، فجلس عنده، ثم نهض.

فقلت له : يا أبا عبدالله، من هذا؟

فقال : مـا أعجب أمرك أتجهل مثل هذا مـن قومك؟ هذا القاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة.

وأتاه على بن الحسين بن عـلى بن أبى طالب رضى الله عنهم، فقلت له : يا أبا عبدالله، من هذا ؟

قال : هذا الذى لا يسع مـسلما جهله، هذا على بن الحـسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم.

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة

قلت : إنى رأيتنى نقـصت من عينيك لمـا علمت أن أمى أم ولد، فما لى بهؤلاء أسوة.

قال : فجللت فى عينيه جدا[1] .

---

(١) راجع سيد التابعين ص ٥٩، وفقه الإمام سعيد جـ ١ ص ١٠٥ـ١٠٦.

موقف سعيد من الشعر والغناء :

كان سعيد ـ رحمه الله ـ رجلا عربى اللسان، واسع الثقافة، والشعر كما يقولون ديوان العرب، وما كان لرجل فى ثقافة سعيد وعلمه أن يكون بعيدا عن الشعر والشعراء فقد روت كتب الأدب أنه كان يستمع للشعراء ويستنشدهم، وأنه كان يفاضل بين الشعراء، وكان إذا سمع غناء راقيا أطربه ذلك وأبدى استحسانه.

فقد روى صاحب الأغانى عن عبدالرحمن بن حرملة قال كنت عند سعيد بن المسيِّب، فجاء ابن قيس الرقيات، فهشّ وقال : مرحبا بظفر من أظفار العشيرة، ما أحدثت بعدى ؟

قال : قد قلت أبياتا، وأستفتيك فى بيت منها، فاسمعها .

قال : هات، فانشده :

هل للديار بأهلها علم
أم هل تبين فينطق الرسم

قالت رقيَّة : فيم تصرمنا
أرقىُّ ليس لوجهك الصَّرم[1]

تخطو بخلخالين حشوهما
ساقان مار[2] عليهما اللحم

يا صاح، هل أبكاك موقفنا
أم هل علينا فى البكا إثم

قال سعيد : لا والله ما أبكانى ، قال ابن قيس الرقيات

بل ما بكاؤك منزلا خلقا
قفرا يلوح كأنه الوشم

---

(١) الصرم : القطيعة والهجر. (٢) مار : تردد وتحرك.

فقال سعيد : اعتذر الرجل، ثم أنشد :

أتلبث فى تكريت لا فى عشيرة
شهود، ولا السلطان منك قريب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل
وللدين والإسلام منك نصيب

فقال سعيد : لا مقام على ذلك، فاخرج منها.

قال : قد فعلت.

قال : قد أصبت أصاب الله بك [١].

فأنت ترى من هذا الخبر أن سعيدا كان يستقبل ابن الرقيات، ويتابع إنتاجه، ويسمع له، بدليل قوله له : ما أحدثت بعدى ؟ وأنه كان يتجاوب مع ابن الرقيات، ويعلق على قوله، وكون ابن الرقيات يأتيه ويتردد عليه وينشده شعره ، يعنى أنه يدرك اهتمام سعيد بالشعر، وقدرته على استحسان الحسن منه، وتأثره به وليس هذا فقط، بل كان سعيد يفاضل بين الشعراء، ويفتخر بشعراء قريش، ويقارن بينهم وبين سواهم، وإليك هذا الخبر الذى ساقه صاحب الأغانى الذى يرويه عن أُبىّ مولى بنى عامر بن لؤى قال : دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق، وإنه لمعتمد على يدى، اذ مررنا بسعيد بن المسيب فى مجلسه، وحوله جلساؤه فسلمنا عليه، فردّ علينا ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد، من أشعر، صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبدالله بن قيس، أو عمر بن أبى ربيعة.

فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد؟

قال : حين يقول صاحبنا :

---

(١) راجع الاغانى جـ ٥ ص ٩١ ـ ٩٢ طبع دار الكتب.

خليلىّ ما بال المطايا كأنما
تراها على الأدبار بالقوم تنكُص[1]
وقد قُطعتْ أعناقهن صبابة
فأنفسنا مما يلاقين شُخّصُ
وقد أتعب الحادى سُراهنّ وانتحى
بهنّ فما يألو[2] عجول مُقلِّصُ[3]
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا
إذ زاد طول العهد والبعد ينقص

ويقول صاحبك ما شئت.

فقال له نوفل : صاحبكم أشعر فى الغزل، وصاحبنا أكثر أفانين شعر.

فقال سعيد : صدقت.

فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر، جعل سعيد يستغفر الله، ويعقد بيده حتى وفّى مائة.

فقال البكرى فى حديثه عن عبدالجبار : قال مسلم : فلما انصرفنا. قلت لنوفل : أتُراه استغفر الله من إنشاد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ ؟

فقال : كلا هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر فيه، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه[4] .

وهذا الخبر يلقى ضوءا على الاهتمام بالشعر والمفاضلة بين

---

(١) تنكص : ترجع (٢) يالو : يقصر

(٣) مقلص : جاد فى السير مشمر

(٤) راجع الأغانى جـ ١ ص ١١٣ ـ ١١٤ و جـ ٥ ص ٩٣.

الشعراء وتتبع إنتاجهم إلى جانب الحاسة النقدية التى كان يتمتع بها سعيد ومحدثه حينما اتفقا على تقدم كل من الشاعرين فى المجال الذى يبرز فيه، وأن سعيدا كان مكثرا من الإنشاد للشعر فى مجلسه والاستشهاد به.

وعلى الرغم من أن سعيدا كان ينتصر لابن أبى ربيعة إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينقده ويعيب عليه إن رأى فى شعره ما يؤاخذ عليه فقد أنشد قول عمر بن أبى ربيعة :

وغاب قُمير كنت أرجو غيوبه
وروّح رُعيانٌ ونوّم سُمَّر

فقال : ما له قاتله الله، لقد صغَّر ما عظم الله، يقول الله عز وجل : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾ [١] .

وكذلك كان سعيد يطرب للغناء الجيد، ويبدى استحسانه إذا سمع صوتا عذبا يتغنى، ومن ذلك ما رواه صاحب الأغانى أن سعيدا كان يَمُرُّ فى بعض أزقة مكة، فسمع الأخضر الحربى يتغنى فى دار العاص بن وائل :

تضوّع مسكا بطن نعمان إذ مشت
به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله، وقال : هذا والله مما يلذ استماعه[٢] .

وقد أورد صاحب زهر الآداب هذا الشعر مطولا فقال : سمع سعيد منشدا يردد :

---

(١) راجع الأغانى جـ ١ ص ٨٤.
(٢) راجع الأغانى جـ ٦ ص ٢٠٣.

فلم تر عـينى مـثل سرب رأيتـه
خـرجْنَ من الـتنعيم مـعـتـمـرات
مـررن بفخّ ، ثم رحـنَ عـشـيـة
يُلبـيِّن للـرحـمن مـؤتـجـرات
ولمـا رأت ركـب النميرى أعرضـت
وكـنّ بـأن يلقينـه حـذرات
دعت نسـوة شُـمَّ الـعـرانـين بُزّلا
نواعم لاشـعـثـا ولا غـبـرات
فـأبرزن لمـا قمن يـحـجـبن دونهـا
حـجـابا من القـسىّ والحـبـرات
تضوّع طـيبا بطـن نعمان إذ مـشت
بـه زينب فى نـسـوة عطـرات
يخـبـئن أطراف البنان من الـتـقى
ويخـرجن شطر الليل مـعـتـجـرات
فلما أنصت سعيد لهذه الأبيات قال : هذا والله مما يلذ استماعه.
ثم تابع المنشد :
وليست كأخرى وسعت جيب درعها
وأبدت بـنان الكـفّ للجـمـرات
وغـالت ببان المـسك وجفـاً مرجـلا
على مـثل بدر لاح فى الظـلمـات
وقـامت ترائى بين جـمـع فـأفـتنت
برؤيتـهـا من راح من عـرفـات[1]

(١) راجع زهر الآداب جـ ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ تحقيق د. زكى مبارك، والعلماء بين التزمت والتسامح ص ٢٢، ٢٣ للمؤلف.

وبعض الرواة ينسب الأبيات الثلاثة الأخيرة إلى سعيد ولا أظن ذلك صحيحا، لأنها تكمل الصورة التى رسمها الشاعر لهؤلاء اللائى خرجن معتمرات يبغين المثوبة والأجر ويقارن بينهن وبين من خرجن للفتنة وعرض محاسنهن.

معارف سعيد بن المسيب :

أثر عن سعيد بن المسيب معرفته بكثير من المعارف السائدة فى عصره، وإن كانت معرفته بالفقه قد غلبت على ما سواها إلا أن المراجع قد ذكرت له جوانب من العلوم قد شارك فيها، وكان له فيها رأى يرجع إليه، ومن ذلك معرفته بالأخبار والأنساب وكانت العرب تهتم بهذا اللون من المعارف وتحافظ به على أنسابها وأيامها، وقد كان معروفا عن أبي بكر - رضى الله عنه - أنه أعرف الناس بالأنساب، وقد تطور هذا اللون من المعرفة إلى أن صار يعرف بعلم التاريخ، فكان العلم بالأخبار يشمل أنساب العرب، وأيامها وأحداثها، ونظرا لأن الأنساب كانت تحتل مكانة خاصة عند العرب، فسموا هذا اللون من المعرفة بعلم النسب، ورجل مثل سعيد قرشى ومن علماء المدينة بل شيخ علمائها قد حصَّل من المعرفة بتاريخ قومه وأيامهم وأنسابهم ما لا يسع العالم من أمثاله الجهل به.

إلا أنه كان يرى أن بعض الناس يتخذون من المعرفة بالأنساب وسيلة للكشف عن سوءات بعض القبائل، فآثر البعد عن هذا العلم والانصراف عنه كلية، لأنه رأى فيه إشاعة لروح التفاخر والعصبية التى رفضها الإسلام، وقد يفهم هذا المعنى من رده على من جاء يطلب إليه أن يعلمه النسب، قال يحيى بن عبيدالله :

جئت سعيد بن المسيِّب، فسلمت عليه، فردّ على فقلت : علمنى النسب.

فقال : أنت تريد أن تسابّ الناس ؟ من أنت ؟

قلت أنا يحيى بن طلحة، فضمنى إليه، وقال : إئت محمداً ابنى فإن عنده ما عندى، إنما هى شعوب وقبائل وبطون وعمائر وأفخاذ وفصائل[١] .

ومما روى عنه فى ذلك أنه قال : كان ولد نوح ثلاثة. والناس كلهم ولد نوح. فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوبة والزنج والبربر وغيرهم، ويافث أبو الصقالبة والترك واللان والخزر ويأجوج ومأجوج[٢] .

تعبير الرؤى :

روت كتب السير أن سعيد بن المسيب كان ذا مقدرة فائقة على تعبير الرؤى، وقد روى ابن سعد أن سعيدا أخذ علم تعبير الرؤى عن أسماء بنت أبى بكر[٣] ، وأن ابن سيرين قد أخذ علمه فى تعبير الرؤى عن سعيد.

وقد عرف عنه مقدرته على تعبير الرؤى فكان الناس يتجهون إليه يسألونه عن تفسير لرؤاهم، ولم يقتصر ذلك على عامة الناس فقط، بل كان الحكام يحاولون أن يعرفوا منه تفسيرا لرؤياهم، وإن كانوا يبعثون إليه من يعرف منه ذلك.

ومن ذلك ما رواه ابن سعد بسنده إلى عمر بن حبيب قال : كنت جالسا عند سعيد بن المسيِّب يوما، وقد ضاقت علىّ الأشياء،

---

(١) راجع فقه الإمام سعيد جـ ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.　(٢) راجع سيد التابعين ص ٧٩.

(٣) راجع ابن سعد ج٥ ص ١٢٣

ورهقني دين، فجلست إلى ابن المسيِّب، ما أدرى أين أذهب ؟ فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد إنى رأيت رؤيا.

قال : ما هى ؟

قال : رأيت كأنى أخذت عبدالملك بن مروان فأضجعته إلى الأرض، ثم بطحته، فأوتدت فى ظهره أربعة أوتاد.

قال : ما أنت رأيتها.

قال : بلى أنا رأيتها.

قال : لا ، أخبرك أو تخبرنى.

قال : ابن الزبير رآها، وهو بعثنى إليك.

قال : لئن صدقت رؤياه ، قتله عبدالملك بن مروان. وخرج من صلب عبدالملك أربعة كلهم يكون خليفة.

يقول عمر بن حبيب راوى المجلس، فدخلت إلى عبدالملك بن مروان بالشام، فأخبرته بذلك عن سعيد بن المسيِّب. فسره، وسألنى عن سعيد وعن حاله، فأخبرته، وأمر لى بقضاء دينى وأصبت منه خيرا[1] .

ومما يتصل بالرؤيا السابقة أن رجلا جاءه فقال : رأيت كأن عبدالملك بن مروان يبول فى قبلة النبى أربع مرار.

فقال : إن صدقت رؤياك، قام من صلبه أربعة خلفاء[2] .

وكانت له تأويلات عجيبة فيما يقص عليه من رؤى، فقد جاءه رجل فقال : إنى أرانى أبول فى يدى.

فقال : اتق الله فإن تحتك ذات محرم، فتبين له أن بينه وبين امرأته رضاع[3] .

ومن أقواله فى ذلك : الرطب فى زمانه رزق، والتمر فى الرؤيا رزق والكيل فى النوم ثبات فى الدين.

---

(١) راجع ابن سعد ج٥ ص ١٢٣
(٢) راجع ابن سعد ج٥ ص ١٢٣
(٣) راجع ابن سعد ج٥ ص ١٢٣

وجاءه مرة رجل فقال : إنى رأيت كأنى جالس فى الظل فقمت إلى الشمس.

فقال : والله لئن صدقت رؤياك لتخرجن من الإسلام.

فقال : يا أبا محمد، إنى أرانى أخرجت حتى أدخلت فى الشمس.

قال : تكره على الكفر.

فخرج الرجل فى زمان عبدالملك بن مروان فى الجيش، فأسر، وأكره على الكفر، ثم رجع، وقدم المدينة وكان يخبر بقصة هذه الرؤيا وتفسير سعيد لها وما وقع له من الأسر، وإكراهه على الخروج من الإسلام[١] .

ومن غرائب تعبيراته للرؤيا أنه جاءه رجل قد تزوج ولم ينجب، وكان يتمنى أن يكون له ولد، وقد رأى أنه قد طرح فى حجره بيض.

فسأل سعيدا عن رؤياه، فقال له : الدجاج عجمى، فاطلب نسبا إلى العجم، فتزوج الرجل غير عربية فولد له ولد[٢] .

هذه بعض تأويلات سعيد للرؤيا التى عرضت عليه، وهى كما ترى تنبىء عن معرفة بهذا اللون من العلم الذى يقوم على قوة الملاحظة وربط الأشياء بعضها ببعض، وقضية تعبير الرؤيا أمر ذكره القرآن الكريم بالنسبة لرؤيا سيدنا إبراهيم[٣] . ورؤيا سيدنا يوسف[٤] ، ورؤيا ملك مصر الذى فسرها له يوسف عليه السلام[٤] .

وكان النبى ﷺ، يسأل أصحابه عمن رأى رؤيا ثم يفسرها، أو يقص رؤيا رآها ويفسرها لأصحابه.

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٥

(٢) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٥

(٣) سورة الصافات آية ١٠٢ ـ ١١٠

(٤) سورة يوسف آية ٤ ، ٤٣ ـ ٤٩

وعلماء النفس المعاصرون يقولون إن الأحلام ما هى إلا من عمل العقل الباطن، وهى تعبير عن أمور تتعلق بها نفس الشخص أو يشغله أمرها فيرى فى المنام ما يشغله فى اليقظة.

ولكن علماء المسلمين لهم فى الرؤيا تفصيلات أخذوها من الكتاب والسنة، والأمثال العامة، وتجد فى كتب السنة جزءا خاصا بالرؤيا يسمونه كتاب الرؤيا وينقسم الكتاب إلى أبواب وهناك أحاديث كثيرة تناولت الرؤيا بالتفصيل، وقد اعتمد العلماء عليها وعلى ما جاء فى القرآن حينما تعرضوا لتعبير الرؤيا، ومن الأحاديث التى تحدثت عن الرؤيا ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان آخر الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا.

والرؤيا ثلاثة : رؤيا بشرى من الله عز وجل، ورؤيا مما يحدث الإنسان نفسه، ورؤيا من تحزين الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدث به، وليقم وليصل ، قال أبو هريرة والقيد فى المنام ثبات فى الدين، والغلّ أكرهه»(*).

والعلماء الذين اشتغلوا بتأويل الرؤيا بنوا تفسيرهم على بعض ما جاء فى القرآن الكريم أو ما جاء فى السنة أو الامثال العامة كما استندوا فيه إلى دلالات القرآن أنهم قالوا : الحبل يعبر بالعهد، لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾[1]، والسفينة تعبر بالنجاة لقول الله سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾[2]، والخشب يعبر

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) العنكبوت : ١٥

(*) راجع شرح السنة للبغوى جـ ١٢ ص ٢١٠

بالنفاق لقوله تعالى : ﴿كأنهم خشب مسندة[1]﴾، والحجارة تعبر بالقسوة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً[2]﴾ والمريض بالنفاق لقوله تبارك وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[3]﴾ والبيض يعبر بالنساء لقوله سبحانه وتعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ[4]﴾ وكذلك باللباس لقوله سبحانه وتعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ[5]﴾ وأكل اللحم النيىء يعبر بالغيبة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا[6]﴾.

وأماما استندوا فيه إلى دلالة الأحاديث، فمن ذلك الغراب يعبر بالرجل الفاسق، لأن النبى ﷺ سماه فاسقا، والفأرة تعبر بالمرأة الفاسقة، لأن النبى ﷺ سماها فويسقة، والقوارير تعبر بالنساء لقوله ﷺ : «يا انجشة رويدك سوقا بالقوارير» والضلع يعبر بالمرأة لقوله ﷺ «إن المرأة خلقت من ضلع».

أما التأويل بالأمثال فمن ذلك : الصائغ يعبر بالكذاب، لقولهم أكذب الناس الصواغون، وحفر الحفرة يعبر بالمكر لقولهم : من حفر حفرة وقع فيها، والحاطب يعبر بالنمام لقولهم فى الواشى أنه يحطب عليه، ويعبر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم : فلان أطول يدا من فلان، ويعبر الرمى بالحجارة وبالسهم بالقذف، لقولهم رمى فلانا بفاحشة، ويعبر غسل اليد باليأس عما يأمل، لقولهم : غسلت يدى عنك.

وهناك تأويل بالأسماء أيضا، كمن رأى رجلا يسمى راشدا

---

(١) المنافقون : ٤
(٢) البقرة : ٧٤
(٣) البقرة : ١٠
(٤) الصافات : ٤٩
(٥) البقرة : ١٨٧
(٦) الحجرات : ١٢

يعبر بالرشد، وإن كان يسمى سالما يعبر بالسلامة[1] . ومن أراد المزيد من ذلك فليراجع شرح السنة للإمام البغوى ج١٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٥٣ فقد أورد من هذا الباب كثيرا من التأويلات وإذا ما تتبعنا بعض ما يراه الناس تبين لنا حقيقة ما قرره العلماء المسلمون فى شأن الرؤيا.

فقد حدثنى فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى رحمه الله أنه رأى فى المنام رجلا وسيما ذا هيبة يرتدى جبة نظيفة وعمامة وله لحية بيضاء على وجه مشرق فقال له : أنا عمرو بن العاص، بلغ الشيخ الغزالى أن يكف عن التطاول علىّ وأن يخطب فى مسجدى وكان هناك فى ذلك الوقت محاولات مع الشيخ الغزالى رحمه الله أن يتولى الخطبة فى مسجد عمرو .

يقول الشيخ الباقورى، فلما استيقظت طلبت من أهلى أن يتصلوا بالشيخ الغزالى فلم يعثروا على الرقم، وبينما نحن نحاول العثور على الرقم إذا بالتليفون يدق، وإذا بالشيخ الغزالى يتحدث فقلت له : إن لك عندى رسالة وأريد أن أؤديها. فقال إنى كنت فى الحج. وأحببت أن أزورك بعد عودتى، ولما جاء بلغته الرسالة التى تلقيتها فى المنام.

وقد التقيت بعد ذلك بالشيخ الغزالى ـ رحمه الله ـ وقصصت عليه رؤيا الشيخ الباقورى رحمة الله عليه، فقال لى : لقد كنت أتناول عمرو بن العاص بالنقد تعصبا لآل البيت وما روى فى الكتب حول ذلك إلا أنى حرمت أن أخوض فى ذلك بعد هذه الرؤيا، والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما قال النبى ﷺ .

---

(١) راجع شرح السنة جـ ١٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

القرآن وعلومه :

رجل بلغ درجة من العلم والمعرفة أن جعله فقهاء المدينة مقدمهم، وسماه العلماء فيما بعد سيد التابعين لابد أن يكون علمه بالقرآن وما يدور حوله من دراسات علما متميزا أهله إلى احتلال تلك المكانة المرموقة بين علماء عصره ومن جاء بعدهم حتى إن عمر بن عبدالعزيز - كما قد مرّ بنا - كان إذا أراد أن يتعرف رأيه فى قضية من القضايا يبعث إليه من يستطلع رأيه فى مجلسه من مسجد رسول الله ﷺ، ولا يجشمه الحضور إليه ، إجلالا له وتقديرا لمكانته حتى إنه اعتذر إليه لما أخطأ أحد من أرسلهم إليه ودعاه إلى التوجه إلى عمر، فقال له عمر أخطأ الرسول إنما أردت أن يأتينى برأيك.

فقد كانت معرفة سعيد بالقرآن معرفة شاملة تتناول حفظه وتلاوته والتعبد به، وفهمه والوقوف على أحكامه وأوامره ونواهيه، وإدراك مراميه، إلى جانب معرفته بأسباب نزول الآيات، والناسخ والمنسوخ حتى يتمكن من استنباط الأحكام، وهو الفقيه الذى اعترف العلماء بإمامته، إلى جانب معرفته بعلوم القراءات، وقد قرأ على علماء الصحابة كأبى هريرة وابن عباس كما ذكر صاحب كتاب غاية النهاية فى طبقات القراء[1] . أنه روى عن عمر وعثمان وسعيد بن زيد، وبلغ من إتقانه لعلم القراءات أن أخذ عنه أشهر علماء التابعين من بعده وهو محمد بن شهاب الزهرى.

علم القراءات :

وقد رويت عنه قراءات لبعض الآيات تلقاها العلماء بالقبول ومن الأمثلة على ذلك الآية السادسة من سورة المائدة التى تقول

---

(١) راجع غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٨ طبع ليدن.

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن القراءة المشهورة لكلمة «ليطهّركم» بفتح الطاء وتشديد الهاء، ولكن سعيدا قرأها بتسكين الطاء وفتح الهاء هكذا «ليُطْهَركم». وكذلك قراءته للآية السابعة والخمسين من سورة الأنعام التى تقول : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ فإن القراءة المشهورة هى «يقصّ» بالصاد ولكن سعيدا قرأ «يقضى» بالضاد من القضاء، ويشهد لقراءته أن الآية فى معنى الحكم والقضاء الْصَق، حيث يقول صدرها «إن الحكم إلا لله» ويقول آخرها «وهو خير الفاصلين» وكل هذه الملابسات ترجح قراءة سعيد، وبخاصة أن ابن مسعود قرأ : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾[1] .

أسباب النزول :

أسباب النزول أحد فروع علوم القرآن، التى لابّد للفقيه والمفتى أن يلمّ بها، لأن هذا اللون من المعرفة يعين الفقيه والمفتى على إصدار الحكم الصحيح على بعض القضايا التى تعرض له، وكثير من آيات القرآن لها أسباب نزول، وبخاصة ما يتعلق ببعض الأحكام، أو الأحداث التى تقع وينزل الوحى متحدثا عنها. ونجد هذا اللون مبثوثا فى كتب التفسير إلى جانب كتب ألفت خصيصا فى أسباب النزول، ومنها كتاب أسباب النزول للواحدى، وكتاب لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى.

---

(١) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ١١٤.

وقد نقل الدكتور هاشم جميل فى كتابه فقه الإمام سعيد بن المسيِّب ما تداولته كتب التفسير منسوبا إلى سعيد بن المسيِّب حول أسباب النزول، وقد حصر ذلك فى ثلاثة مواضع الأول الآية ٢٢٦ من سورة البقرة التي تقول : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نقل عن سعيد أنه قال «كان الإيلاء من أضرار الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبدا، وكان يتركها لا أيِّما ولا ذات بعل، فجعل الله تعالى الأجل أربعة أشهر[1] . ونزلت الآية تحمى المرأة من هذا الاجحاف الذى كان يقع عليها فى الجاهلية، وليحذر المسلمين من الوقوع فى هذا الخطأ الظالم.

الثاني حول قوله تعالى فى سورة النساء الآية ٦٥ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾فقد اختصم الزبير ابن العوام وحاطب بن أبى بلتعة فى من يسقى أولا، واحتكما إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن يسقىٰ الأعلى ثم الأسفل.

والثالث فى سورة الليل الآيتين ١٩ - ٢٠ يقول تعالى : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ⁽١٩⁾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ فقد نزلتا فى أبى بكر حينما قال لأمية بن خلف اتبيعنى بلالا ؟ فقال : نعم ابيعه بنسطاس، وكان عبدا لأبى بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركا فدعاه أبو بكر إلى الإسلام على أن يكون له ماله، فأبى فباعه أبو بكر ببلال ، فقال المشركون : ما فعل أبوبكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده فنزلت الآيتان[2] .

---

(١) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ١١٦ - ١١٧، وراجع سيد التابعين ص ٨٣.

(٢) راجع سيد التابعين ص ٨٤.

معرفة الناسخ والمنسوخ :

قضية النسخ من القضايا التى اختلف حولها العلماء فبعضهم يرى أن ليس هناك نسخ، وإنما هناك ظروف مختلفة تختلف الأحكام بمقتضاها، أما غالبية العلماء فيرون أن النسخ واقع، وقد ألفت كتب فى الناسخ والمنسوخ وتناولت الكتب التى تحدثت عن علوم القرآن هذا الأمر بالتفصيل، ومنها كتاب البرهان فى علوم القرآن للزركشى، وكتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى. وإلى جانب ذلك هناك كتب ألفت خصيصا لبحث موضوع الناسخ والمنسوخ واستعراض الآيات التى تناولها النسخ والآيات التى نسختها، وتجد سردا لهذه الكتب فى كتب تاريخ العلوم مثل الفهرس لابن النديم وكشف الظنون لحاجى خليفة، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، والذين قالوا بوقوع النسخ يتناول بحثهم نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة، وفى كتاب الرسالة للإمام الشافعى، والموافق للشاطبى تفصيل وشرح لهذه القضايا ومناقشة لآراء العلماء فيها.

وسعيد بن المسيِّب من العلماء الذين يرون وقوع النسخ. وقد روى ذلك عنه فى موضعين من القرآن الكريم. الأول آية الوصية من سورة البقرة التى تقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ [1] ﴾ فيرى أنها نُسخت بآية المواريث فى سورة النساء[2] .

والثانى فى قوله تعالى فى سورة النور : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ

(١) البقرة : ١٨٠ (٢) النساء : ١١

زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[١]﴾ حيث يرى أنها منسوخة بقوله تعالى فى نفس السورة : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (٢) .

وقد نقل ذلك عند القرطبى[٣] . فى تفسيره، وابن كثير[٤] .

تفسير القرآن :

كان سعيد يتحاشى الخوض فى تفسير القرآن من باب الورع، وكان لا يقول فى القرآن إلا إذا جاءت آية أخرى تفسر الآية التى سئل عنها أو ورد بشأنها تفسير عن النبى ﷺ، أو رواية عن صحابى، أو أن يفسر تفسيرا لغويا لبعض الألفاظ، وقد أثر عنه أنه قال : لا أقول فى القرآن شيئا[٥] . وقد روى يزيد بن أبى يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيِّب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس. فإذا سألناه عن تفسير القرآن سكت، ومن أمثلة ما روى عنه فى التفسير ملتزما بالمنهج الذى أشرنا إليه تفسيره لقوله تعالى فى سورة الشعراء ٨٨-٨٩ : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فقال : القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض. قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

وما استمده من السنة تفسيره : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران ٣٩، فإنه فسر الحصور بالذى لا يغشى

(١) النور : ٣ (٢) النور : ٣٢
(٣) راجع تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٦٩ طبع دار الكتب.
(٤) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠٢، وجـ ٦ ص ١١ طبع دار الشعب.
(٥) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٣٧
(٦) فقه الإمام سعيد جـ ١ ص ١٢٠

النساء لورود حديث بهذا المعنى، وما استمده من القرآن والسنة معنى تفسيره لسورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. فقد فسر الشاهد بيوم الجمعة، أخذا من حديث روى عن النبى ﷺ، وهو أفضل الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد وفسر «مشهود» بيوم القيامة أخذا من قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1] .

فقد استعان فى تفسير هذه الآية بما جاء فى القرآن والسنة معا أما تفسيره للكلمات اللغوية فتفسيره لكلمة أواب فى قوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾[2] . فقال : الأواب: الذى يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

ويمكن أن نقول : إن سعيدا كان على رأس المدرسة التى تسمى التفسير بالمأثور، فقد مهد السبيل لهذا المنهج. بما أثر عنه، وحمل راية التفسير بالمأثور بعده ابن جرير الطبرى وابن كثير، والسيوطى.

السنة :

كان علم سعيد بالسنة فى القمة، فقد كان حريصا على أن يلم بسنة رسول الله ﷺ والخلفاء والرواة من الأصحاب، حتى قال عن نفسه : «ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ وكل قضاء قضاه أبو بكر، وكل قضاء قضاه عمر ـ قال راوى هذا عنه ـ وأحسبه قال وكل قضاء قضاه عثمان ـ منى»[3] !

---

(١) هود ١٠٣ (٢) الإسراء : ٢٥

(٣) راجع تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٨٦.

(١) راجع تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٤ طبع حيدر أباد الهند.

ولا ننسى أن سعيدا يعتبر راوية أبى هريرة لأنه زوج ابنته، حتى قيل إن أصح الأسانيد الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة وقد تلقى الناس حديثه بالقبول والاطمئنان لما عرف به من الدين والصدق والأمانة والدقة، وكان علمه بالسنة محل القبول الكامل من علماء الحديث ونقاده حتى قال ابن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علما من سعيد بن المسيب، وإذا قال سعيد مضت السنة ، فحسبك به، وهو عندى أجل التابعين»[٤] .

ولعلماء الحديث اصطلاحات وتقسيمات للأحاديث بحسب متونها ورواتها، ومن هذه التقسيمات أخبار الآحاد، والحديث المرسل، وخبر الآحاد هو الذى رواه فرد عن فرد واحد عن الصحابى حتى نهاية السند، ولم يكن فى واحد من رواته مطعن، ويرى أكثر العلماء جواز الاحتجاج بخبر الآحاد فى الفروع دون الأصول والحديث المرسل هو الذى رفعه التابعى إلى النبى ﷺ وسقط منه الصحابى فى رأى غالبية علماء الحديث ويوجد بين علماء الحديث من يرى أن الحديث المرسل هو ما سقط منه راو سواء كان صحابيا أو غيره.

وموقف ابن المسيب من الحديث المرسل أنه لا يرى الاحتجاج به، وعلى الرغم من رأيه هنا فى الاحتجاج بالحديث المرسل فإن الإمام الشافعى يرى أن مرسل سعيد بن المسيب حسن. ويعلل العلماء رأى الشافعى هذا بأن ما عرف عن سعيد من الدقة والصدق وأنه لا يروى إلا عن ثقات، فمعنى هذا أنه إذا روى حديثا مرسلا فلابد أنه تلقاه عن ثقة ولهذا قبله العلماء ويروى المروزى

(٤) راجع تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٤ طبع حيدر أباد الهند.

عن أصحاب الشافعى أن جميع مراسيل سعيد بن المسيب بحثت فوجدت مسندة، وهذا هو السبب فى أن الشافعى اعتبرها حجة(١).

الفقـــه :

كانت معارف سعيد الواسعة بالسنة وقضايا رسول الله ﷺ وقضايا الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة تمده بالقدرة على إصدار الحكم فيما يعرض له من القضايا على ضوء ما عنده من العلم بسنة رسول الله ﷺ، وكان يمثل فى المدينة مدرسة أهل الحديث التى تبلورت فيما بعد فى مذهب مالك، وليس يعنى ذلك أنه لم يستعمل الرأى مطلقا، بل إنه كان لا يرى مجالا للرأى ما دام هناك نص من قرآن أو سنة. أو حكم قضى به واحد من الصحابة السابقين. والحق أن ذلك لم يكن اتجاه سعيد وحده بل سمة عامة تشمل علماء الحجاز وكثيرين من علماء العراق من أمثال شريح والشعبى، غير أنه إذا عُرضت قضية لم يتناولها النص، أو لم يسبق فيها حكم لأحد الصحابة، فإن سعيدا كان يعمل الرأى، ويحكم فيها بما يهديه إليه اجتهاده، وإن كان غيره من علماء المدينة يتوقفون إذا لم يجدوا نصا.

وقد جرى حوار بين سعيد وبين ربيعة الرأى يتبين منه مذهب سعيد فى تناول الأحكام، وهذا الحوار رواه مالك عن ربيعة بن عبدالرحمن قال : سألت سعيد بن المسيب : كم فى إصبع المرأة ؟

فقال : عشر من الإبل.

قلت : كم فى إصبعين ؟

---

(١) راجع اختلاف الحديث للشافعى هامش كتاب الأم جـ ٧ ص ٢٣ ـ ٢٤ طبع الشعب وراجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣٤.

قال : عشرون من الإبل.

قلت : كم فى ثلاث ؟

قال : ثلاثون.

فقلت : كم فى أربع ؟

قال : عشرون من الإبل.

فقلت : حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها « ديتها » ؟

فقال سعيد : أعراقى أنت ؟

فقلت : بل عالم متثبت أو جاهل يتعلم

فقال سعيد : هى السنة يا ابن اخى.

وتعليق سعيد الأخير بقوله «هى السنة يا ابن أخى» يكشف عن مذهبه فى أخذ الأحكام ، من أنه إذا كان هناك نص فلا مجال للرأى.

وقد كان لسعيد إجابات عن قضايا فى الفقه تناولت كثيرا من الجوانب فى العبادات والمعاملات والقضاء والحدود وسواها، وقد جمعها باحث عراقى فى كتاب سماه.. فقه الإمام سعيد بن المسيِّب، وعلق عليها وقارنها بآراء العلماء الآخرين فى نفس القضايا[١] عارضا حجج كل فريق، ومذهب سعيد فى أخذ الأحكام هو المذهب الذى جرى عليه فقهاء المدينة السبعة وسواهم.

خاتمة المطاف :

كانت حياة سعيد بن المسيِّب ـ رحمه الله ـ مليئة بالمتاعب والمشاحنات، جرَّت عليه الكثير من الآلام، فقد تعرض للسجن،

---

(١) راجع كتاب سيد التابعين ص ٩١ ـ ٩٢.

والجلد والمقاطعة، وتعرض للقتل، وقد ضعف بصره فى أخريات حياته، ولما عرض عليه أن يخرج إلى وادى العقيق ليتداوى اعتذر لأن خروجه سيحرمه من حضور الجماعة فى مسجد رسول الله ﷺ.

وقد عاش سعيد حياة طويلة امتدت حتى بلغ الثمانين، وقد ولد بعد عامين من خلافة عمر رضى الله عنه، وتوفى إلى رحمة الله فى عام ٩٤ هـ بعد أن قدم القدوة للعلماء وأهل الفتوى فى الاعتزاز بالحق، والتمسك بأهدافه حتى تسود المثل العليا، ويتحقق للمجتمعات ما ترنو إليه من عدل يبسط أجنحته على الجميع، وأمن يعيش الجميع فى ظلاله.

وكان أثره واضحا فى الحياة الفكرية فى المدينة، واتجاه المدارس الفقهية التى عرفت منها مدرسة أهل الأثر بالحجاز فرحم الله سعيدا وأجزل ثوابه وأحسن مثواه.

عالم المدينة

عروة بن الزبير

(٩٤هـ)

أبوه الزبيـر بن العوام حوارى رسـول الله ﷺ ، وأمه أسـماء بنت أبى بكر الصـديق رضى الله عنهـما ، وخـالته أم المـؤمنين عائشة رضى الله عنها .

اختلف المؤرخون فى تاريخ ولادته ، فقيل إنه ولد فى خلافة عـمر بن الخطاب رضـى الله عنه ، ورجح ابن كثـيـر فى كتـابه البداية والنهاية أنه ولد عام ٢٣ هـ .

وكـان أبوه الزبيـر رضى الله عنه يرقـصـه وهو صـغـيـر ، ويقول له :

أبيض من آل عـتـيق مـبـارك من ولد الصـديق
ألـذه كمـا ألـذُّ ريـقى(١)

كان من فقهاء المدينة السبـعة أو العشرة الذين اتخذهم عمر ابن عبـد العزيز مـستشـاريه فيمـا يعرض له من أمـور ، وكان لا يصدر إلا عن رأيهم، كان فقيها عالما حافظا ثبتا حجة ، عالما بالسـير ، ثقـة، كـثيـر الحديث مـأمـونا ، وهو أول من ألف فى السير والمغازى ، وكـان من أروى الناس للشعر ، أخذ عن عدد من الصـحابة وسـواهم ، ونظرا لصلته الخـاصة بأم المـؤمنين عائشـة رضى الله عنها ، فقد أخـذ عنها كل علمهـا ، وكانت من أعلم الصـحـابة ، حتـى روى أنه قيل : لـقد رأيتنى قـبل مـوت عائشة بأربع حجج أو خمس حـجج ، وأنا أقول : لو ماتت اليوم ما ندمت على حـديث عندها إلا وقد وعيـته ، ولأجل هذه الصلة الوثيقة بعائشة واستفادته منها قال قبيصة بين ذؤيب أحد فقهاء

---

(١) راجع البيان والتبين جـ ١ ص ١٨٠ تحقيق السندوبى .

المدينة : كان عـروة يغلبنا بدخوله على عائشة ، وكـانت عائشة أعلم الناس[1] .

الإشادة بعلم عروة :

كان علم عروة الزاخر قد لفت انتـباه كل من خالطه ، والتقى به ، وبخـاصة من أبناء الأمـويين والمروانيـين ، فقـد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قـال : ما أعلم أحدا أعلم من عروة ، وما أعلمه يعلم شيـئا أجهله ، وهذا عبد الملك بن مـروان ، وقد كان يجمعـه هو وعروة الجد فى طلب العلم بالمدينة لمـا كان شابا ، فلما آلت إليه الخلافـة ، قصده الناس من هنا ومن هناك ، وكان ابن شـهاب الزهرى فى وفـد من أهل المـدينة قـدموا عليـه فى دمشق ، وكان أحدثهم سنا ، ولفتت حداثة سن الزهرى نظر عبد الملك ، فسأله : من أنت ؟

فلما انتسب إليـه ، قال له : لقد كان أبوك وعـمك نعاقين فى فتنة ابن الزبير ، فقال الزهرى : يـا أمير المؤمنين ، إن مثلك إذا عفـا لم يعـد ، وإذا صفح لم يُثَـرِّب ، فأعـجب عبـد الملك منطق الزهرى على حـداثة سـنه ، فـقـال له : أين نشـأت ؟ فـأجـاب الزهرى: بالمدينة .

سأل عبد الملك : عند من طلبت (يعنى العلم) .

فأجاب : سعـيد بن المسيِّب ، وسليمان بن يسار ، وقـبيصة ابن ذؤيب ومع أنهم مـن جلة العلمـاء ، فـإن عـبـد الملك وجـه الزهرى قـائلا : فـأين أنت مـن عـروة بن الزبيـر ، فـإنه بحـر لا تكدره الدلاء .

---

(١) جاء هذا الخبـر مرتين في العقد الفـريد يذكر مرة فتنة ابن الأشـعث ومرة فتنة ابن الزبير ، والصحيح أن المقصود ابن الزبير .

قــال الزهرى فلمــا انصــرفت من عنده ، لم أبارح عــروة بن الزبير حــتى مات[١] وكأنما كــان عبد الملك يتذكــر أيام شبابه ، وهم لا زالوا بعد فى مقتبل العمر ، وقد جلسوا أربعة أو خمسة حسب روايات كتب الأخــبار ، عبد الملك ، وعــبد الله بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعــروة بن الزبير ، وتقول بعض الروايات إن عبــد الله بن عمــر كان مــعهم ، وقــد اجتــمعــوا فى المســجد الحرام، وكان ذلك فى عهد معــاوية ، فقال بعضهم : هلمّ فلنتمنه ، فــقــال عبــد الله بن الزبيــر منيــتى أن أملك الحــرمــين ، وأنال الخلافــة ، وقال مصعــب : منيتى أن أملك العراقــين وأجمع بين عــقيلتى قــريش : سكينة بنت الحــسين ، وعــائشة بنت طلحــة ، وقال عبد الملك : منيتى أن أملك الأرض كلها ، وأخلف معاوية ، فقــال عروة : لست فى شىء مــما أنتم فــيه ، منيــتى الزهد فى الدنيــا ، والفوز بالجنة فى الآخــرة ، وأن أكون مــمن يروى عنه هذا العلم[٢] .

وكأنما كانت أبواب الســماء مفتحة فاستــجابت لهذه الأمنيات فى ساحة الحــرم ، وكأنما ظل عبد الملك يتــذكر ذلك المجلس ، كلما طاف به طائف من ذكريات الشــباب ، وكان يرى كلا منهم إلا عــروة كانت الدنيــا تداعب أمنيــاته ، وتدغــدغ أحلامــه ، لكن عروة كان معلق القلب بالسمــاء ، فلم يتمن شيئا من عرض هذه الدنيا وبهجــتها ، وإنما تمنى الزهد فيــها ، والفوز بالجنة ، وأن تكون أيامــه فيــها وقــفا على نشــر العلم بين الناس ، وتفــجيــر

---

(١) راجع العقد الفريد جـ ٢ ص ١٩ ، ص ٩٢ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠١ طبع بولاق ، وجاءت هذه القصة بروايات أخرى فى الحلية جـ ١ ص ١٧٦ ، فقد جــعل تمنى المغفرة من قول ابن عمــر ، وقصر تمنى عروة على نشر العلم .

ينابيعه في قلوبهم ، ولذلك كان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير ، وليست هذه هى النصيحة الوحيدة التى وجهت إلى الزهرى ليستفيد من علم عروة، بل هناك نصيحة أخرى جاءت من مصر كما جاءت الأولى من دمشق ، قال الزهرى : قدمت مصر على عبد العزيز بن مروان ، وأنا أحدث عن سعيد بن المسيب ، فقال لى إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: ما أسمعك تحدث إلا عن ابن المسيِّب ؟ فقلت : أجل ، فقال : لقد تركت رجلين من قومك ، لا أعلم أحدا أكثر حديثا منهما عروة بن الزبير ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

قال الزهرى : فلما رجعت إلى المدينة ، وجدت عروة بحرا لا تكدره الدلاء[1] .

وقد أثر عن الزهرى : بعد ذلك وهو أعلم التابعين ، قوله : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيِّب ، وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير ، وكان بحرا لا تكدره الدلاء ، وعبيدالله ابن عبد الله بن عتبة ، وكنت لا أشاء أن أقع منه على علم ما لأجد عند غيره إلا وقعت[2] ، وكذلك قوله : « أدركت من بحور قريش أربعة : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيِّب ، فأما سلمة بن عبد الرحمن فكان يمارى ابن عباس فجرب بذلك علما كثيرا »[3].

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن يرى عروة بن الزبير ، وعمر ابن عبد العزيز من الذين اكتملت فيهم الصفات التى تؤهلهم

---

(١) راجع كتاب المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٥٥١

(٢ ، ٣) المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٥٥٢

للعلم ، فيقول : « إنما هذا العلم لواحد من ثلاثة : لذى نسب يزين به نسبه ، أو لذى دين يزين به دينه ، أو مختلط بسلطان ينتجعه به ، ولا أعلم أحدا أجمع لهذه الخلال من عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز ، كلاهما ذو حسب ، ودين ، ومن السلطان بمكان »[1] .

وليس غريبا على عروة أن يبلغ هذه المنزلة من العلم ، فقد كان جدّه فى تحصيل العلم لا يعرف الكل ، فقد روى عنه أنه كان يقول : لقد كان يبلغنى عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فآتيه ، فأجده قد قال : ـ استراح وقت القيلولة ـ فأجلس على بابه ، فأسأله عنه إذا خرج[2] .

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ـ وهو من أقرانه ـ يأخذ عنه الحديث ، ولا يخفى سروره بما يأخذ عنه ، فقد أتى ذات ليلة إلى عروة ، فجعل عروة يحدثه ، وجعل عبيد الله يضحك ، فظن عروة أنما ذلك من عبيد الله استهزاء ، فقال له : ما يضحكك ؟

فقال : إنك تحدثنى عن عائشة ، وتحملنى على الملأ ، وإن غيرك يحيلنا على المفاليس[3] .

اهتمامه بنشر العلم :

كان عروة حريصا على بث العلم ونشره حتى إنه كان يستحث غيره على سؤاله والاستزادة من المعرفة مما عنده ، فقد روى أنه كان يتألف الناس على حديثه ، وكان يستحث

---

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٨٧ (٢) تاريخ الإسلام للذهبى جـ ٤ ص ٣٢
(٣) المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٥٥٢

أولاده على سؤاله ، فيقول : يا بنى ، سلونى ، فلقد تركت حتى كدت أن أنسى ، وإنى لأسأل عن الحديث فيفتح حديث يومى[١] ، وكان يقول لأولاده : إنا كنا أصاغر قوم ، ثم نحن اليوم كبار ، وإنكم اليوم أصاغر ، وستكونون كبارا ، فتعلموا العلم تسودوا به ، ويحتاج إليكم ، فوالله ما سألنى الناس حتى نسيت .

وكانت له كتب فقه سجل فيها ما عنده من المعرفة والعلم ، ثم بدا له ، فمحاها اكتفاء بكتاب الله ، ثم لما تقدمت به السن تمنى أن هذه الكتب كانت قد بقيت ، وفى ذلك يروى عنه أبو الزناد قوله : « فوالله لوددت أن كتبى عندى ، وأن كتاب الله قد استمرت مريرته (قوى واستحكم) ، وهناك رواية عن ابنه هشام تقول : إن أباه كان حرق كتبا فيها فقه ، ثم قال : لوددت أنى كنت فديتها بأهلى ومالى »[٢] .

ولهذه الثقة فيما عند عروةمن علم كان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنه ، فقد روى عن عبد الرحمن بن عوف قال : لقد رأيت الأكابر من أصحاب النبى ﷺ وإنهم ليسألونه عن قصه ذكرها[٣] .

مظهره :

كان عروة حسن الهيئة ، أنيق المظهر ، وسيم الطلعة ، وكانت هذه سمة العلية من أبناء قريش ، ومن مظاهر هذه الوسامة أنه كان لا يحفِ شاربه ، وإنما يأخذ منه مأخذا حسنا، وكذلك كان ابن المسيِّب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وكان شديد العناية بنظافته ، فكان يغتسل كل يوم ، ويلبس الثياب المعصفرة .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص ١٣٣

(٢) ، (٣) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٨٣

وقال ابنه هشام : إنه كان يعصفر له الملحفة بالدينار ، وكان آخر ثوب لبسه ثوب عصفـر له بدينار ، وكان يلبس كساء خز ، ويلبس الطيلسان المـزرر بالديباج فيه ، وهو مـحرم ، ولا يزره عليه ، وكان يـصلى فى قمـيص وملحـفـة مشـتمـلا بهـا على القميص، وكان يلبس فى الحر قباء سندس مبطنا بحرير ، وكان يخضب قريبا من السواد[١] .

وهذه كلهـا مظاهر تـدل على أنه كـان فى حـال من النعـمـة والثراء.

علمه بالسير والمغازى :

كان عروة واسع المعـرفة ، محيطا بالسير والـمغازى ، حتى إنه أول من ألف فى هذا الفن ، إلا أن ما كـتبه فى فن المـغازى والسيـر لم يصل إلينا . ويبدو أنه من بين الكتب التى أحرقـها ، ثم ندم عليها فيـما بعد ، وكان قادة عصره يعـرفون عنه إلمامه بالسيـر والمغازى ، فكانوا يبـعثون إليه من وقت لآخـريسـألونه عن أمر من الأمور التى تعرض لـهم ، ويريدون أن يعرفوا وجه الحق فيـها ، وكان عـبد الملك بن مروان يـكتب لعروة من وقت لآخر يستوضـحه عن الأمـر من السيرة ، وعلى الرغم من ضياع كتب المغازى بين ما ضـاع أو أحـرق من كتبه ، فإن قراءة كتب التاريخ بإمعان يمكن للباحث من خلال الإمـعان فيها أن يستخلص رواية كاملة لـلسير والمـغازى جاءت عن طـريق عروة ، ولعل الله يهـبنا القـوة ، ويفـسـح لنا فى الأجل حـتى نحـقق هذا ، ونخـرج السيرة للناس من رواية عروة بن الزبير ، وهذه نماذج من السيرة أجاب بها عروة عبد الملك بن مروان لما بعث يسـأله عنها :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص ١٣٤ ، ١٣٥

من ذلك أن عبد الملك لما بعث إليه يسأله عن أول أمر الإسلام كتب إليه : « أما بعد ، فإنه ـ يعنى النبى ﷺ ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذى أنزله عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق[1] عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث ، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ـ وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا ورفاهية من الرزق ، وأمنا ومتجرا حسنا ، فأمرهم بها رسول الله ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم »[2] .

وفيما يلى نموذج ثان ردا على كتاب عبد الملك إلى عروة يسأله عن وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها قال : « إنك كتبت إلىّ فى خديجة بنت خويلد تسألنى متى توفيت ؟ وإنها توفيت

---

(١) انصفق : انصرف . (٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩

قبـل مخـرج رسـول الله ﷺ من مكة بثـلاث سنين أو قريبـا من ذلك ، ونكح عـائشة مـتوفى خـديجة ، كـان رسول الله ﷺ رأى عائشة مرتين ، يقال له هذه امـرأتك ، وعائشة يومئذ ابنة ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعـائشة بعدما قـدم المدينة ، وهى يوم بنى بها ابنة تسع سنين »[1] .

أما النموذج الثالث فإنه كان أيضا ردا على تساؤل عبد الملك لمـا كتب إلى عـروة يسأله عن أمـر خـالد بن الوليد يوم الفـتح فأجـابه قائلا: « أما بـعد فإنك كـتبت إليَّ تسألنـى عن خالد بن الوليـد ؛ هل أغار يوم الفـتح ؟ وبأمـر من أغار ؟ وإنه كـان من شأن خـالد يوم الفـتح أنه كان مع النبى ﷺ ، فلمـا ركب النبى بطن مَـرّ عامدا إلى مكة ، وقـد كانت قـريش بعثـوا أبا سفـيان وحكيم بن حـزام يتلقيـان رسول الله ﷺ ، وهم حـين بعثـوهما لايدرون أين يتوجه النبى ﷺ ، إليهم أو إلى الطائف ؟ وذاك أيام الفتح ، واستتبع أبا سـفيان ، وحكيم بن حزام بديل بن ورقاء ، وأحب أن يصحبـهما ولم يكن غير أبي سفـيان وحكيم بن حزامٍ وبديل ، وقالوا لهم حين بعـثوهم إلى رسول الله ﷺ : لا نؤتينَّ من ورائكم ، فـإنا لا ندرى مـن يريد مـحـمـد ؛ إيانا يريد ، أو هوازن يريد ، أو ثقيفا ؟

وكـان بين النبى ﷺ وبين قـريش صلح الحديـبيـة ، وعهـد ومدة، فكانت بنو بكر فى ذلك الصلح مع قريش ، فاقتتلت طائفة من بني كـعب وطائفة مـن بني بكر ، وكان بين رسـول الله ﷺ وبين قـريش فى ذلك الصلح الذى اصطلحـوا عليه : « لا إغـلال ولا إسلال »[2] فـأعانت قـريش بنى بكـر بالسلاح ، فـاتهـمت

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٦٣ ، ١٦٤

(٢) الإسلال الرشوة ، والإغلال الخديعة .

بنو كعب قريشا ، فمنها غزا رسول الله ﷺ أهل مكة ، وفى غزوته تلك لقى أبا سفيان وحكيما وبديلا بمرّ الظهران ، فبايعوه، فلما بايعوه بعثهم بين يديه إلى قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فأخبرت أنه قال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وهى بأعلى مكة ، ومن دخل دار حكيم - وهى بأسفل مكة - فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه وكف يده فهو آمن .

وإنه لما خرج أبو سفيان وحكيم من عند النبى ﷺ عامدين إلى مكة بعث فى إثرهما الزبير وأعطاه رايته ، وأمّره على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال للزبير : لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتى حتى آتيك ، ومن ثم دخل رسول الله ﷺ .

وأمر خالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاعة وبنى سليم، وأناس إنما أسلموا قبيل ذلك أن يدخلوا من أسفل مكة ، وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة ، فدخل عليهم خالد بن الوليد من أسفل مكة وحُدِّثتُ أن النبى ﷺ قال لخالد والزبير حين بعثهما : لا تقاتلا إلا من قاتلكما ، فلما قدم خالد على بنى بكر والأحابيش بأسفل مكة ، قاتلهم فهزمهم الله عز وجل ، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك ، غير أن كرز بن جابر أحد بنى محارب بن فهر ، وابن الأشعر - رجلا من بنى كعب - كانا فى خيل الزبير ، فسلكا كداء فقتلا ، ولم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال ، ومن ثم قدم النبى ﷺ ، وقام الناس إليه يبايعونه ، فأسلم أهل مكة ، وأقام النبى ﷺ عندهم نصف شهر، لم يزد على ذلك ، حتى جاءت هوازن وثقيف فنزلوا بحنين »[1].

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٥ ، ٥٦

عبـــادته :

كان عروة رجـلا صالحا ، قد وسع عليـه في الرزق والجاه إلا أن ذلك لم يصـرفه عـما يليق بأهل التـقوى والصــلاح من الإقبـال على العبـادة والنسك تقربا إلى الله تعـالى ، واستزادة من فـضله ، وكانت هذه سجية فيه منذ الحداثة ، فـقد مرّ بنا لما اجتمع مع نظرائه ، وأخذ كل منهم يتـمنى لنفســه ، فكانت أمنيتـه نشر العلم في الدنيـا والفوز بالمغفرة في الآخرة ، ورجل يفكر بـهذه الطريقة لا بد أن يكون عامر الصلة بالله ، موصول القلب بربه ، مراقبا له في كل أموره .

وقد روى ابنه هـشام أنه كان يســرد الصوم ، وكـان يصوم الدهر كله إلا يومى الفطر والنحر ، وأنه مات وهو صائم ، حتى في السفـر كان يكون مـعه الرفقـة فيصـومون ويفطرون عـملا بالرخصة ، فلا يأمرهم بالصـيام ، ولا يفطر هو بل يستمر على صيامه عـملا بقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[1] ، وكان دائم التـلاوة لكتاب الله تـعالى والعكوف علـيه ، فكان يقـرأ ربع القرآن كل يوم نظرا في المـصحف ، فإذا جـاء الليل ، قام الليل تاليا للقـرآن وقد حدثوا أنه لم يخلف هذه العـادة مطلقا إلا ليلة قطعت رجله ، ثم استـأنف التلاوة في اليوم التالى كـعادته التى جرى عليها طوال حياته[2] .

صفاته وأخلاقه :

كان عـروة رجلا يحب مـعالى الأمور ، ويأخـذ نفســه بها ، ويربى عليها أبناءه ، وقد مرّ بنا وصيته لأولاده في طلب العلم ، وكان يقول : « إنى لأعشق الشرف كما أعشق الجمال»[3] ، وكان

---

(١) البقرة ١٨٤

(٢) وفيات الأعـيان جـ ١ ص ٢٩٩ طبع بولاق ، وجـ ٣ ص ٢٥٥ تحقيق د. إحســان عباس طبع دار صادر .

(٣) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٨ .

يقـول لأولاده : « يا بنى لا يهـديـن أحـدكم إلى ربه عـز وجل ما يستحى أن يهديه إلى كريمه ، فإن الله عز وجل أكرم الكرماء، وأحق من اختـير إليه » ، ويقول لهم : « يا بنى تعلمـوا ، فإنكم إن تكونوا صغـراء قوم عـسى أن تكونوا كبـراءهم ، واسوأتاه ، ماذا أقبح من شيخ جاهل» .

وكان يرى أن تصرفـات الشخص تعبيـر حقيقى عن طبيـعته الكامنة ، وسلوكـه ، وأن الإنسان الذى يبدر منه العـمل الطيب يدل ذلك على طبـيـعة خـيرة فى حنايـاه ، تدعوه إلى أن يفـعل مثلهـا، وأن الذى يفعل السـوء يومىء فعله إلى ما تـنطوى عليه نفســه من رغبـة فى عمل الشـر ؛ حتى ولو ظن الناس به غـير ذلك؛ ولذلك كان من نصيحته لأولاده قوله : « إذا رأيتم خلة شر رائعـة من رجل فـاحذروه ، وإن كـان عند الناس رجل صــدق ، فإن لهـا عنده أخوات ، وإذا رأيتم خلة خير رائعــة من رجل فلا تقطعوا عنه إياسـكم ، وإن كان عند الناس رجل سوء ، فـإن لها عنده أخوات» .

وقد كرر هذا المعنى فى صورة أخرى حيث قال : « إذا رأيت الرجل يعمل الـحسنة فاعلم أن لهـا عنده أخوات ؛ فـإن الحسنة تدل على أخواتها ، وإن السيئة تدل على أخواتها[1] ».

وكان عروة رجلا شديد الحياء ، يخشى أن يحرج أصدقاءه ، وأقاربه ؛ حـتى ولو أدى ذلك إلى تنازله عن حقوق خـاصة به ، وفى مسلكه مع طلحـة بن عبيد الله أوضح دليل على ذلـك ، فقد كان طلحـة بن عبـيد الله بن عبـد الرحمن بن أبى بكر يـمتُّ إليه بصلة القرابة من جهة أمه ، وكانت أم طلحة عائشة بنت طلحة ،

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٧ ، وتهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٨٣ .

وكانت قد تزوجت مصعب بن الزبير ، وكان عروة قد أودع عند طلحة مالا من مال بنى مصـعب بن الزبير لما خرج إلى الشام ، وبلغ عروة أن طلحة يبنى ويبـتاع الرقيق والإبل والغنم ، وربما صاحب ذلك إشاعـة تقول : إن طلحة قد بدّد الـمال الذى أودعه عنده عروة ، فلمـا قدم عروة ، وسمع مـا يتناقله الناس كره أن يكشـفه ، وأن يسـأله عن المـال ، فسكت عـنه ، وجعل يلقـاه ، ويستحى أن يتـحدث معه فيه ، فلما طال به الـعهد ، ولم يسأل طلحة عن الأمـوال ، قال له طلحة : ألا تريد مـالك ؟ قال : بلى ، وكأنما كان ينتظر من طلحة ذلك ، ليكفى نفسه مؤونة الحرج .

قال له طلحة : فأرسل فخذه ، سأله عروة : متى ؟

فأجاب : متى شـئت ، فبعث معه عروة رسـولا ؛ فإذا هو قد هدم عليه بيتا ، واستخرج المال ، وأتى به إلى عروة .

وسُرَّ عروة أن يرى طلحـة قد حفظ الأمانة ، وكـذّب إشاعات الناس، وأدرك أن ذلك لدينه المتين، وحسبه العالى، فتمثل قائلا:

فـما اسـتخـبـأت فى رجل خبـيئـا
كـمـــثل الدين أو حـــسب عـتـــيق
ذوو الأحـــســاب أكــرم مـــأثرات
وأصبـر عـنـــد نائبـــة الحـقوق[1]

ســـخاؤه :

كـان عروة رجـلا سخـيـا ، يرى أن الله قد أفـاء عليـه العلم والشرف والجاه والمال ، فكان يحب أن يشركـه الناس فيما أفاء الله عليه ، وقـد رأينا رغبته فى نـشر العلم ، أما سخـاؤه بالمال فكان يحب أن يجعله للعامة من الناس ، وكان له حائط (حديقة)

---

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٦ ، ١٧٧

بها نخل ، فـإذا حان وقت جناها ، وجـاء ميعـاد الرطب ثلم فى جدارها ثلما ؛ ليعبر الناس منه فيـأخذوا ما يشتهون من رطبها، يأكلون ويحـملون ، وكـان ينزل حـوله ناس من البـدو يدخلون فيأكلون ويحـملون أيضا ، ويظل الجدار مثلومـا كذلك طيلة مدة الرطب ، فإذا مضى أوانه أصلح الجدار ورممه ، وكان كلما دخل حديقتـه تلك ردد قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[1] .

وقد عبـر عن مسلكه هذا فى الحيـاة خير تعبيـر بما أثر عنه من قـوله : « مكتوب فى الحكمـة : لتكن كلمـتك طيبـة ، وليكن وجهك بسطا ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء» .

وقد كـان عروة بكلمـته هذه يعـبر أصـدق تعبـير عن الآداب والأخلاق التى أوصى بهـا الإسلام فى كتـاب الله تعالى ، وسنة نبـيه ﷺ ، واقـرأ إن شـئت قوله تعـالى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[3] وقوله ﷺ : « إذا لم تسـعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »[4] .

صبره وتحمله :

لولا أن كتب التاريخ والأخبار أجـمعت على ماروى عن صبر عروة وتحمله لمّا وقعت الأكلة فى رجله ، واحتيج إلى قطعها لما

---

(١) الكهف ٣٩ (٢) الحج ٢٤ (٣) آل عمران ١٥٩

(٤) جاء الحديث بصيـغة قريبة من هذه وهى إنكم لن تسعوا الناس بأمـوالكم فسعوهم ببسط الوجه وحـسن الخلق ، وقد استشـهد بها الغزالى فى الإحيـاء جـ ٨ ص ١٤٢٩ طبعة الشعب وقال العراقى : رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى .

استطاع المـرء أن يصدق ما روى ، ولقد كانت قـصة عجبـا حقا تقول : إن عروة فى إحدى سفراته إلى دمشق ، بعد أن دان الأمر لبنى أميـة ، وزال ملك أخيـه عبد الله بمكة ، أصـابت الأكلة رجله فى الطريق ، وأخـذت الإصابة تزداد يومـا بعد يوم حـتى وصل إلى دمشق ، وعـرف بالأمر الوليد بن عـبد الملك ، فاسـتدعى له الأطباء ، فـأجمع رأيهم عـلى قطعهـا خوفا من سـريان الداء فى الساق كلها ، ثم الجسد بأكمله ، وأخذ الوليد يقنعه بقطعها حماية لبقـية جسـمه من التلف ، فلما اسـتجاب لرأى الأطبـاء ، وأخذوا يعدون العدة لنشرها ، عرضوا عليـه أن يسقوه مخدرا لئلا يحس بألم القطـع فـرفض ذلك قـائلا : مـا ظننـت أن أحـدا يؤمن بالله يشرب شيئا يغيب عقله ، حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن إذا كنتم ولا بدّ فـاعليـن ، فـافعـلوا ذلك ، وأنا فى الصـلاة ، فـإنى لا أحس بذلك ولا أشـعر به ، فنشـروا رجله من فـوق الأكلة من المكان الحىّ احتياطا أنه لا يبـقى منها شىء ، وهو قائم يصلى ، وكان صائما ، فمـا تضرر ولا اختلج ، وهناك رواية تقول : إنهم قالوا نسـقيك الخمـر حتى لا تجـد لها ألما ، فـقال : لا أستـعين بحرام الله علـى ماأرجو من عـافيتـه ، قالوا : فنسـقيك المـرقد ، قـال : ما أحب أن أسلب عـضـوا من أعـضائى ، وأنا لا أجـد ألم ذلك ، فأحتسبه ، ودخل عليه قوم فأنكرهم ، فسأل : من هؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك ، فإن الألم ربما عزب معه الصبر .

قال : أرجـو أن أكفـيكم ذلك من نفسى ، فـقطعت وهو يهلل ويكبر ، ثم أغـلى الزيت فى مغارف الحـديد ، فحـسم به الجرح مكان القطع حـتى لا ينزف ، فغـشى عليه من شـدة ، الألم ، ثم أفاق والعرق يتصبب على وجهه .

ولما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها ، فقلبها فى يده ، ثم قال : أما والذى حملنى عليك ، إنه ليعلم أنى مـامشيت بك إلى حرام ، وكأنما كان هذا السفر يحمل له كثيرا من الآلام والأحزان ، ففى نفس الليلة التى قطعت فـيها رجله كان له ابن اسـمه محمـد قد صحبه مـعه فى سفره ، وكان فيما يقـال أحب بنيه إليه ، فدخل دار الدواب فرفـسته فـرس فمـات ، فدخلوا عليه يـعزونه فيـما أصـابه ، وكان الوليد بن عبد الملك أول المعزين له ، فكان جوابه تسليما مطلقا لأمر الله ، ورضى بقضـائه وقدره ، وكان مما قال تلك الكلمـات التى أثرت عنه ، وهى : « اللهم لك الحمـد ، كانوا سبـعة فأخـذت واحدا وأبقيـت ستة ، وكـان لى أطراف أربعة ، فأخذت واحدا ، وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطى ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت» .

ولما قـضى حاجتـه من دمشق رجع إلى المـدينة ، ولم يجر على لسانه شكوى ، أو ألم ممـا حلّ به فى نفسه وفى ولده فى ذلك السفر ، حـتى وصل إلى وادى القرى فى طريق عودته إلى المدينة ، وهو المكان الذى ظهر فيه الداَء فى رجله سمع يقول : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾(١) .

ولما وصل إلى المدينة أتاه أهلهـا يسلمون عليه ويعزونه فى رجله وولده ، وكان مـما عزاه به عيـسى بن طلحة بن عبـيد الله قوله: « والله مـا كنا نعدّك للصراع ، ولقد أبقى الله لنـا أكثرك ، أبقى لنا سـمـعك ، وبصرك ، ولـسانك وعـقلك ويديك وإحـدى رجليك » .

(١) الكهف : ٦٢

فقـال لـه عـروة : « والله يا عيسى ، مـاعــزانى أحـد بمثـل ما عزيتنى به[1] وقد جـاءت هذه التعزيـة فى صيغـة أخرى فى الطبعة الـتى حققها إحـسان عباس هى :« والله مـابك حاجة إلى المشـى ، ولا أرب فـى السـعى ، وقد تقـدمك عضـو من أعضـائك ، وابن من أبنـائك إلى الجنة ، والكـل تبع للبـعـض ، إن شـاء الله تعالى ، وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء ، من عـلمـك ورأيك . نفـــعـك الله وإيانابـه ، والله ولى ثـوابك والضمين بحسابك » .

وترامى إلى مسمع عروة أن بعـض الناس يقول : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه فلما سمع ذلك أنشد قول معن بن أوس :

لعـــمــرك مــا أهويـت كـفى لريـبــة
ولا حــملتنى نـحـو فــاحـشـــة رجلى
ولا قـادنــى سـمــعى ولا بصـرى لـهـا
ولا دلنـى رأيى عليـــهـــا ولا عـــقـلى
ولست بـمـــاش مـــا حـــيـيت لمنـكر
من الأمـــر لا يمـــشى إلى مـــثله مـــثلى
ولا مـــؤثر نفـــسى عـلى ذى قـــرابة
وأوثر ضـــيــفى مـــا أقـــام علـى أهلى
وأعلم أنــى لم تصـــبنــى مـصـــيـبــة
من الدهر إلاّ قـــد أصـابـت فـتى قـــبلى

ويبـدو أن نزول هذه الأحـداث بعـــروة وهو فى دمـشق فى ضــيافـة الوليـد قـد أثر فى نفس الوليـد ، وتأثر أيمـا أثر على ما نزل بصديق أبيـه ، وكان عروة لما أصيبت رجله شـيخا فى

(١) البيان والتبين جـ ٢ ص ٧٠ (٢) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٥٦

سن الخامسة والستين ، ويقال إنه عاش بعد ذلك ثماني سنوات، وحدث أن قدم في نفس السنة التي أصيب فيها عروة وابنه قوم من بني عبس وفدا على الوليد ، وكان فيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد عن عينيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، بت ليلة في بطن واد ، ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالي ، فطرقنا سيل ، فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود ، وكان البعير صعبا، فندّ ، فوضعت الصبي ، واتبعت البعير ، فلم أجاوز إلا قليلا حتى سمعت صيحة ابني ، ورأسه في فم الذئب ، وهو يأكله ، فلحقت البعير لأحبسه ، فنفحني برجله على وجهي ، فحطمه وذهب بعينيّ ، فأصبحت لا مال لي ، ولا أهل ، ولا ولد، ولا بصر .

فقال الوليد لما سمع قصته : « انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاء »[1] .

وكان من عادة عروة أن يجلس كل ليلة بعد صلاة العشاء الآخرة ، هو وعلى زين العابدين في آخر المسجد يتحدثان ، وجرى بينهما الحديث ذات ليلة عما يقع من بني أمية من الجور، والمقام معهم ، وهما لا يستطيعان تغيير ذلك ، ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهما لسكوتهما على هذا الجور ، فقال عروة لعلي : يا علي ، إن من اعتزل أهل الجور ، والله يعلم منه سخطه لأعمالهم ، فإن كان منهم على ميل ، ثم أصابتهم عقوبة الله رجي له أن يسلم مما أصابهم[2] .

---

(١) وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس ـ ٣ ص ٢٥٦
(٢) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٣٥

وقد سكن عروة بالعقيق وبنــى قصرا هناك ، فعوتب فى ذلك وقــيل له أتهــجر مــســجــد رسول الله ﷺ ، فــقــال : «إنى رأيت مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والـفاحشة فى فجاجهم عالية ، فكان فيما هناك عما هم فيه عافية » وواضح من قوله ، أنه يريد أن يعتزل الناس .

روايته للشعر :

بعث معـاوية إلى عروة مقدمه المـدينة فاستنشده الـشعر ثم قال له أتروى قول جدتك صفية بنت عبد المطلب :

خـــــالجـت آباد الـدهـورعلـيـــــهـم
وأســـمـــاء لـم تشـــعـــر بذلـك أيّم
فلو كـــان زبر مـشـركـا لـعذرته
ولكـنه ـ قـــد يزعـم الناس ـ مـــسـلم

قال نعم وأروى قولها :

ألا أبلـغ بنـى عـــمـى رســـولا
فـــفـــيم الكـيـــد فـــينـا والإمـــار
وســـائل فـى جـــمـــوع بنـى علي
إذا كـــثـــر الـتناشـــد والـفـــخـــار
بأنّـا لا نقـــر الـضـــيم فـــينا
ونحـن لمن تـوســـمنا نـضـــار
مـتـى نقـرع بمـــروتكم نســؤكم
وتظـعن مـــن أمـــاثلـكم ديـــار
ويـظـعنّ اهـل مـكـة وهى سكُـن
هم الأخـــيـــار إن ذكـــر الخـــيـــار
مـــجـــازيـل العـطاء إذا وهبـنا
وأيســـــار إذا حُـبٌ القـــــتـــــار

ونحن الغافرون إذا قدرنا
وفينا عند عدْوتنا انتصار
وانا والسوابح يوم جمْع
بأيديها وقد سطع الغبار(١)

وإنما قالت ذلك فى قتل أبى أزيهر تعير أبا سفيان بن حرب، وكان صهره قتله هشام بن الوليد ، قال معاوية حسبك يا ابن أخى هذه بتلك وقد روى لعروة بعض أبيات من الشعر ومما قاله لما بنى قصر العقيق :

بنيناه فأحسنّا بناه
بحمد الله فى خير العقيق
تراهم ينظرون إليه شزرا
يلوح لهم على وضح الطريق
فساء الكاشحين وكان غيظا
لأعدائى وسُرَّ به صديقى
يراه كل مختلف وسار
ومعتمر إلى البيت العتيق(٢)

وبئر عروة مشهورة بالعقيق طيبة الماء، وفيها يقول أحد الشعراء:

لو يعلم الشيخ غُدُوِّى بالسحر
قصدا إلى البئر التى كان خصر
فى فتية مثل الدنانير غُرَر
وقاهم الله النفاق والضجر
بين أبى بكر وزيد وعمر
ثم الحوارىِّ لهم جَدٌّ أغر

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩

قد شمخ المجد هناك وازمخر
فهم عليها بالعشيّ والبُكَر
يسقون من جاء ولا يُؤذَى بشر
لزاد في الشكر وإن كان شكر[١]

عروة وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد :

كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والي حمص ، منذ أيام عثمان ، وكان قد عظم شأنه بالشام ، ومال إليها أهلها ، لما كان عندهم من آثار أبيه خالد ، ولبأسه وما أوقعه بالروم ، وما أظهره من شجاعة وجلد ، فأحبه الناس ، وخشي معاوية على نفسه منه ، وساورته الهواجس في شأنه ، وأصبح يستشعر الخطر على سلطانه من أن يرى رجلا مثل عبد الرحمن ، وقد تعلقت به القلوب بهذه الصورة ، فطلب من ابن أثال أن يعمل الحيلة في قتله والتخلص منه ، وضمن له في نظير ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش ، وأن يوليه جباية خراج حمص .

وبيّت ابن أثال الأمر في نفسه ، وأخذ يتحين الفرص المواتية ليحقق لمعاوية ما أراده ، وكان ابن أثال رجلا نصرانيا، وقد واتته الفرصة حينما عاد عبد الرحمن من إحدى غزواته المظفرة ببلاد الروم ، وكان المفروض أن تنصب له حفلات التكريم والإجلال لخدماته التى أداها للدولة ، ولكن الخوف على السلطان أفسد كل الأمور ، وجعل النجاح سببا للخوف ، ومبررا للموت بدلا من الحياة ، ودسّ ابن أثال شربة مسمومة إلى عبد الرحمن مع بعض مماليكه ، فشربها ، ومات بحمص ، ووفى معاوية لابن أثال بما ضمنه له ، فوضع عنه خراجه وولاه خراج حمص .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

ولم يعد ما حدث سرا ، فقد تحدث به الناس ، وتناقلته الأخبار، فى جنبات الدولة المختلفة ، وأصبح حديث المجالس ، وحدث أن جلس خالد بن عبد الرحمن إلى عروة بن الزبير ، ويبدو أنه لم يعرفه ، فسلم عليه ، فسأله : من أنت ؟

فأجاب : أنا خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

فقال عروة : ما فعل ابن أثال ؟

وكأنما أحس خالد أن عروة يعرض به ، وبعدم انتصاره لدم أبيه ، فقام من عنده ، وخرج من فوره متوجها إلى حمص ، وهناك أخذ يترصد لابن أثال لتمكنه منه الفرصة ، حتى رآه يوما راكبا ، فاعترضه خالد ، فضربه بسيفه فقتله ، ولما رجع الأمر إلى معاوية حبسه أياما ثم أغرمه دية ابن أثال ، ورجع خالد إلى المدينة بعدما أخذ بثأر أبيه ، ثم أتى عروة ، فسلم عليه ، فقال له عروة : ما فعل ابن أثال ؟

فأجاب عبد الرحمن : قد كفيتك ابن أثال ، ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ فسكت عروة ولم يجب ، وكأنما يعرض بأولاد الزبير أن لم يأخذوا بثأر أبيهم ، حينما قتله ابن جرموز .

وكان خالد حين قتل ابن أثال لم يتوار ، وإنما أنشد :

أنا ابن سيف الله فاعرفونى
لم يبق إلا حسبى ودينى
وصارم صلّ به يمينى[1]

روى صاحب نسب قريش قال : لما قتل الزبير يوم الجمل كان موقف بنيه فى غاية من الحرج والضيق ، فلم يدعهم الناس وفقد أبيهم ، بل أخذوا يلقونهم بما يكرهون ، وقد ضايق ذلك

---

(١) راجع تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

أشد الضيق بنى الزبير ، وفى ذلك يقـول عروة : لما قتل الزبير يوم الجمل جعل الناس يلقـوننا بما نكره ، ونسمع منهم الأذى ، فقلت لأخى المـنذر : انطلق بنا إلى حكيم بن حزام حـتى نسأله عن مثالب قريش ، فنلقى من يشتمنا بما نعرف .

فانطلقنا حتى دخلنا عليه داره ، فـذكرنا ذلك له ، فقال لغلام له : أغلق باب الدار ، ثم قام إلى سوط راحلتـه ، فجعل يضربنا ونلوذ منـه ، حـتى قـضى بـعض مـا يريد . ثم قــال : أعندى تلتـمـسان مـعـايب قـريش ، ايتدعـا فى قـومكمـا يكف عنكمـا ما تكرهان.

يقول عروة : فانتفعنا بأدبه[1] .

فى غمرة الأحداث :

نشـأ عروة كـمـا نرى من سيـر أحـداث حيـاته فى المـدينة المنورة، وأخـذ عن أصحـاب رسول الله ﷺ ، وبخـاصة خالـته عائشة رضى الله عنها ، وكان مـثله مثل العلية من أبناء قريش ، وقد مرّ بنا حديثه مع عبـد الملك وأخويه عبد الله ومصعب ابنى الزبير لما جلسوا يتمنـون ، ولما وقعت أحداث فتنة ذى النورين عثمـان رضى الله عنه كانت الأمور تمضى به وبأمـثاله ممن هم فى سنه هينة سـهلة حتـى قتل عـثمـان ، وولى على الخلافـة ، وثارت الفتنة وكان لعـائشة دور كبير فى المطالبة بـدم عثمان ، وكان الزبير على رأس المعارضين لعلى هو وطلحة بحجة الأخذ بالثأر من قتلة عثمان ، وفي موقعة الجمل رد عروة لصغر سنه، وهناك رواية تقول : إن عبـد الله أخاه هو الذى طلب إلى أبيه أن يعيده ، لما رآه أعاد إخـوة له ليسوا أشقاء ، ولكن الذى تواترت

---

(١) جـمهرة نسب قريش ص ٣٦٣ ايتدعا يعنى اسكنا واستقرا .

عليـه كتب السيـر فيـما عـدا البلاذرى في أنســاب الأشراف أن عـروة وأبا بكر بن عـبد الرحــمن مـمن رُدَّا يوم الجـمل لصغـر سنهما ، إذ كان كل منهمـا فى سن الثالثة عشرة ، وهذا هو أول حـدث يوشك أن يدخل عروة فـيمـا كان يدور من الصـراع بين المسلمين فى ذلك الوقت ، ولكنه نجا منه بفضل صغر سنه .

ولما صفا الأمر لبنى أمية بعد عام الجماعة هدأت الأمور أيام مـعـاوية ، وانصـرف كل إلى شأنــه ، وكان ذلك حـقـا بسـبب مـا أبداه الحــسن رضى الله عنه من إيثـار مـصلحـة الأمـة ، وتجنيبـها الفرقة ، والحـرص على حقن دماء المـسلمين ، إلا أن الصـراع الذى هدأ ، والوحـدة التى عـاش الـناس فى ظلهـا بدأ بنيانها يهـتز ، وقواعدها تنقض حـينما أقدم معاوية على البـيعة لابنه يزيد من بـعده ، فـأخـذت سـحب الفـرقـة تغـيم سـمـاء المسلميـن، وبدأت النزعات الكامنة تظهر، وجرت الأحـداث دامية محزنة انتهت بمقتل الحـسين رضى الله عنه فى العراق ، بعدما آل الأمر إلى يزيد ، ودعا ابن الزبير إلى نفسه فى مكة ، وانتشر سلطانه مدة على العراق ومـصر ، وبدا على الساحة السيـاسية ثلاث جماعـات تتصارع ممـا مزق وحدة المسلمـين كل ممزق : الزبيـريون فى الحجـاز ، والأمـويون فى الشـام ، والمـغامـرون الذين تستـروا تحت راية الأخذ بثأر الحـسين رضى الله عنه فى العراق بزعامة الـمختار بن أبى عبيد الثـقفى ، يضاف إلى هؤلاء جميعا الخوارج الذين لا يرضون عن واحدة من هذه الجماعات ، ويرون حـربهم جمـيعـا وخـروجهم عن الإسـلام ، وبدأت هذه الجماعات المـتحاربة تأكل بعضها واحـدة تلو الأخرى ، وانفرط عقد المسلمين ، وسالت الدماء بينهم حتى لم يعد هناك من قوى

تواجـه بعضـها إلا الزبيـريين فى الحجـاز والعراق بعـد مقـتل المخـتار ، والأمويين أو بنى مروان من بعـدهم فى الشام ، ولم يلبث بنو مروان أن انتزعوا العراق من الزبيريين ، وقتل مصعب ابن الزبيـر ، وتـحـصن أخـوه عـبـد الله بمكـة ، فى هذا الجـو المضطرب عاش عروة ، ولم يكن يستطيع أن يكون بمنأى عنه ، حتى لو أراد ؛ لأن أخاه عبد الله كان يـدعو لنفسه ، وكان عروة معه بمكة لمـا اشتد به الحصار ، وأخذ عـدد ممن حوله يزينون له أن يستسلم ؛ ولكنه أبى ، وقد جرى هذا الحديث مرة وعروة حاضـر ، وكان عروة يرى أن يتنازل أخوه حـقنا للدماء ، ويرى فيما فعل الحسن مع معـاوية قدوة له ، وقد أورد صاحب العقد وصفا لهذا المجلس الأخير لابن الزبير ، وما جرى فيه من حوار فقال لمـا كانت الليلة التى قتل فى صبـيحتها ابـن الزبير ، جمع من كان معه من القرشيين ، فقال : ما ترون ؟

فقال رجل من بنى مخزوم من آل بنى ربيعة : والله لقد قاتلنا معك حـتى لا نجد مـقيلا ، ولئن صـبرنا معك مـا نزيد على أن نمـوت ، وإنمـا هى إحدى خـصلتـين ، إمـا أن تأذن لنا فنأخـذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج .

فـقال ابن الزبيـر : لقـد كنت عاهـدت الله أن لا يبايعنى أحـد فأقيله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أنا فإنى أقـاتل معك حـتى أموت بمـوتك ، وإنهـا لتأخـذنى الحفـيظة أن أسلمك فى مثل هذه الحالة .

قال له رجل آخر : أكتب إلى عبد الملك بن مروان .

فـقـال له : كـيف أكتب : مـن عبـد الله أمـيـر المـؤمنين إلى عـبـدالمـلك بن مـروان ، فـوالله لا يقـبل هـذا أبدا ، أم أكـتب :

لعبدالملك بن مـروان أمير المؤمنين من عبـد الله بن الزبير فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إليّ من ذلك .

فـقال عـروة بن الزبيـر وهو جـالس معـه على السـرير ـ : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة . قال : من هو ؟

قال : حسن بن عليّ خلع نفسه ، وبايع معاوية .

فـرفع ابن الزبيـر رجله فضـرب بهـا عروة حـتى ألقـاه عن السـرير، وقال : يا عـروة ، قلبي إذا مـثل قلبك ، والله لو قـبلت ما يقـولون ما عشت إلا قليـلا ، وقد أخذت الدّنيـة ، وإن ضربة بسيف في عز خير من لطمة في ذل»[1] .

ويبـدو أن عروة كـان قد شـارك في القتـال ، فقـد روى له البلاذري بيتا من الشعر أنشده وهو يقاتل :

أبى الحـواريون إلا مجـدا   من يقتل اليوم يلاق رشدا

الرحلة إلى عبد الملك :

لم يكد الحجاج يدخل مكة بعد مقـتل عبد الله بن الزبير حتى امتطـى عروة ناقة نجـيبـة ، ومعـه مال خرج به إلى المـدينة ، فأودعـه هناك ، ثم واصل السـير إلى عبـد الملك بدمشـق حتى وصلها قـبل رسل الحجـاج ، فقـال للحاجب : استـأذن لي على أمير المؤمنين ، فسأله : من أنت ؟

فقال : قل له أبو عبد الله ، ولما أخبر الحاجب عبدالملك قائلا: إن رجلا يستـأذن ، ويقول : قل له أبو عبد الله .

قال : ذاك عروة بن الزبير ، ائذن له .

فلما دخل سلـم عليه بالخلافـة ، وعانقه ورحـب به وأجلسه على السرير . فقال عروة :

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ ص ١٧٨ ، ١٧٩

نمَتْ بأرحــام إليــك قريبــة ولا قرب لـلأرحام ما لم تقرّب

ثم جرى الحديث بينهما حـتى وصل إلى عبد الله بن الزبير ، فقال عروة : بان ، فسأل عبد الملك : وما فعل ؟

أجاب عروة : قتل رحمه الله .

فخرّ عبد الملك ساجدا .

قال عروة : فإن الحجاج صلبه ، فهب جثته لأمه .

قال : نـعم . وكتب إلى الحـجاج يعظم مـا بلغه من صلـبه ، وكتب إليه بشأن عروة قائلا : إن عروة كان مع أخيه ، فلما قتل عدو الله أخذ مالا من مال الله وهرب .

فكتب إليه عـبد الملك : إنه لم يهـرب ، ولكنه أتانى مبـايعا ، وقد أمنته وحللته مما كان ، وهو قادم عليك ، فإياك وعروة .

ويبدو أن عـروة كان قـد عاد إلى الشـام بعد دفن أخـيه ، إذ كانت الصلة بـينه وبين عبد الملك قـديمة أيام أن كـانا يجلسان مـعا فى مـسـجد المـدينة ، وعـزّ على الحـجاج أن يفلت عـروة بالأموال ، فعاود الكتابة إلى عبـد الملك بشأنه حتى همّ عبدالملك أن يبعث بـه إلى الحجاج ، فـقال عـروة لما أحسّ ذلك من عـبد الملك : ليس الذليل من قـتلتـموه ، ولكن من ملكتـموه ، وقـال : ليس بملوم من صبر حتى مـات كريما ، و لكن الملوم من خاف من الموت ، وسمع مثل هذا الكلام .

فقال عبد الملك : لن تسمع أبا عبد الله شيئا تكرهه[١] .

ويبـدو أن عروة أقـام بعض الوقت عند عـبد الملك ، وأظهـر عبـدالملك من إكرامه والحفـاوة به ما يليق بعروة ، وربمـا جدد

---

(١) راجع هذه الأحداث في أنسـاب الأشراف جـ ٥ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٤ ، والعقـد الفريد جـ ٥ ص ١٥٨

ذلك لهما صحبتهما في مسجد المدينة ، لما كانا في أول الشباب جادين في تحصيل العلم والنسك ، وكان عبدالملك معجبا بعلم عروة ، وقد مرّ بنا إشارته على الزهرى أن يلزمه ، فدخل هو وعروة يوما بستانا فأعجب عروة جماله ونظامه وشجره وثماره، فقال : ما أحسن هذا البستان .

فقال عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، إن هذا يؤتى أكله كل عام وأنت تؤتى أكلك كل يوم(١) .

هل ولى عروة اليمن لعبد الملك :

ذكر صاحب العقد الفريد أن عروة كان عاملا على اليمن لعبدالملك بن مروان ، وكانت العلاقة بين عروة والحجاج علاقة تربص وتوثب ، والحجاج رجل الدولة ، ويدها اليمنى ، ومُسْكت منافسيها في العراق والحجاز ، وما كان له أن يستريح ، وهو يرى أخ عدو بني مروان اللدود يتولى عملا لهم على اليمن ، ولم ينس بعد الأموال التى أخذها واحتمى منه بعبدالملك ، واتصل بعروة أن الحجاج عازم على مطالبته بالأموال التى تحت يده ، وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك ، وعاذ به تخوفا من الحجاج . واستدفاعا لضرره وشره .

فلما بلغ الحجاج لجوء عروة إلى عبد الملك غاظه ذلك وكتب إليه : أما بعد ، فإن لواذ المعترضين بك ، وحلول الهائجين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دمث أخلاقك ، وسعة عفوك كالعارض المبرق لأعدائه ، لا يعدم له شائما ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أُدْنىَ الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصى ،

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٢

هم على الشدة أشد استباقا منهم على اللين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مـال الله ، وفي استخراجه منـه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .

يقول صاحب العـقد الفريد : فلما قرأ عـبد الملك الكتاب بعث إلى عروة ، ثم قال : إن كتاب الحجاج قد ورد فيك ، وقد أبى إلا إشخاصك إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأنك به .

فالتفت إليه عروة مقـبلا عليه ، وقال : «أما والله ماذلّ وخزى من مـات ، ولكن ذل وخزى من ملكتـموه ، والله لئن كـان الملك بجـواز الأمر ، ونفـاذ النهى ، إن الحجـاج لسلطان عليك ، ينفـذ أموره دون أمـورك ، إنك لتريد الأمر يزينك عـاجله ، ويبقى لك أكـرومة آجله ، فـيجـذبك عنه ، ويلقـاه دونك ، ليتـولى من ذلك الحكم فيـه ، فيحظى بشرف عـفو إن كان ، أو بجرم عـقوبة إن كانت وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه» .

فنظر عبدالملك فى كتاب الحجاج مرة أخرى بعد سماع مقالة عروة ، ورفع بصره إلى عـروة تارة ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، فكتب إليـه : « أما بعد ، فـإن أميـر المؤمنين رآك مع ثقـته فى نصيحتك خابطا فى السياسة خبط عشواء الليل ، فإن رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد الـعصى هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجت العـامة بعنف السياسـة ، كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفـرصة ، ثم لا يـلتفـتـون إلى ضـلال الداعى وهداه إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك .

وقـد وليت العراق قـبلك ساسـة وهم يومئـذ أحمى أنوفـا ، وأقرب من عـمياء الجاهـلية ، وكانوا عليهـم أصلح منك عليهم ، وللشـدة واللين أهلون ، والإفراط فى العـفو أفضـل من الإفراط فى العقوبة والسلام .

الأيام الأخيرة :

ولم تكد تنجلى هذه الشدة ، ويستريح الناس جميعا من الحجاج ، حتى يعود عروة إلى المدينة ، ويستقر بها ، وينصرف للعلم والفقه والمغازى والرواية عن رسول الله ﷺ ، إلى جانب البذل من جاهه وماله ما ينفع الناس ، وهو الذى حفر بئر عروة المعروفة حتى اليوم ، وكان فى منهجه فى نشر العلم متبعا للأثر، مقتفيا له ، حتى قال ابنه هشام عنه : ما قال أبى فى شىء برأيه قط ، وكان قد عكف على بناء قصر له بالعقيق ، فلما انتهى منه وحفر بئره ، دعا جماعة فأطعمهم ، فلما عاتبوه على ترك المدينة ، قال تلك الكلمة التى رويت عنه ، والتى تشعر بأن الناس انصرفوا إلى ما لا ينفعهم ، فوجد السلامة فى البعد عنهم ، وقد يعبر عن ذلك قوله : « لم يعد فى المدينة إلا حاسد على نعمة أو شامت بمصيبة.

وتوفى عروة رحمه الله فى أرضه عام ٩٤ هـ على الصحيح ودفن بها ، وهى السنة التى يقال لها سنة الفقهاء لكثرة من توفى منهم فيها ، فرحمه الله ورضى عنه .

راهب قريش

أبو بكر بن عبد الرحمن

(٩٤هـ)

أحد فقهاء المدينة، الذين كانت تدور عليهم الفتوى، وأحد الفقهاء الذين اتخذهم عمر بن عبدالعزيز للشورى، فكان لا يقضى أمرا إلا بعد أن يعرضه عليهم، كان ثقة، فقيها، كثير الحديث، عالما عاقلا، سخيا، يقصده الناس للاستعانة به فى قضاء حوائجهم سواء من ماله الخاص، أو فى الشفاعة لهم عند أصحاب السلطان، إذ كان له مكانة خاصة، وصداقة لعبدالملك كان يستعملها فى عون أصحاب الحاجات عند أهل الحل والعقد من ذوى الجاه والسلطان.

أبوه عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، المعروف بالشريد، وأمه فاختة بنت عتبة بن سهيل بن عمرو، أتى بهما من الشام، فسماهما عمر بن الخطاب الشريدين، وقال : زوجوا الشريد الشريدة، لعل الله ينشر منهما خيرا فتزوجا، وأقطعهما عمر بالمدينة خطة أوسع لهما فيها. فقيل له : أكثرت لهما يا أمير المؤمنين، فقال : عسى الله أن ينشر منهما ولدا كثيرا رجالا ونساء، وكأنما كان عمر ينظر بظهر الغيب، فقد كان لأبى بكر إخوة أشقاء هم : عمر وعثمان، وعكرمة وخالد ومحمد، وأختهم حنتمة، والمغيرة وأبو سعيد من أمهات أخريات.

وقد سرت الأمور بأبى بكر حتى صار سيدا من سادات قريش علما وكرما وسخاء وأمانة وسداد رأى، ومكانة مرموقة، وكان ذا منزلة عالية عند عبدالملك بن مروان، حتى إنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه الوليد قائلا : يا بنى إن لى بالمدينة صديقين، فاحفظنى فيهما، عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وأبا بكر بن عبدالرحمن، وكان يقول : إنى لأهم بالشىء أفعله

يأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا، فأذكر أبا بكر بن عبدالرحمن، فأستحى منه، فأدع ذلك الأمر.

وكانت مكانة أبى بكر هذه تجعل الناس يقدمون إليه يسألونه أن يعاونهم فى سداد ما حلّ بهم من مغارم، لما عرف عنه من المسارعة فى مثل هذه الأمور.

فقد ذكر أن جماعة من بنى أسد بن خزيمة، وفدوا عليه يسألونه أن يتحمل عنهم دماء «ديات» كانت بينهم ـ وكانت عادة العرب أن يتجهوا بمثل هذه القضايا إلى من تدفعهم هممهم العالية، وشرفهم أن يتحملوا المغارم عن الناس حتى يحل السلام بينهم ـ فتحمل أربع ديات، ورأى أن يستعين بأخيه المغيرة بن عبدالرحمن، وكان جوادا أيضا فى تحمل هذه الديات، وكان لأبى بكر ولد شاب عاقل كان يصحب أباه إلى المسجد بعدما كف بصره، فقال له أبوه : يا بنى اذهب إلى عمك المغيرة ابن عبدالرحمن ، فأعلمه ما حملنا من هذه الديات ، واسأله المعونة.

فلما ذهب إلى عمه، وأخبره بما قاله أبوه، لم تطب نفسه بالمعاونة، وقال لابن أخيه : أكثر علينا أبوك. وينصرف الفتى من لقاء عمه غير الناجح، وتمضى أيام لا يذكر لأبيه ما رد به عمه عليه، حرصا على حسن الصلات بينهما، وذات يوم، وهما فى الطريق إلى المسجد، سأله أبوه : أذهبت إلى عمك ؟

فأجاب : نعم. وسكت.

وأدرك أبو بكر من سكوت ابنه أنه لم يجد عند عمه ما يحب، وكأنما أعجب أبا بكر مسلك ابنه الحكيم، فأراد أن يغريه

بالمداومة على هذا التصرف النبيل، من الحرص على سلامة القلوب بين الأشقاء، فقال له : يا بنى، لا تخبرنى ما قال لك، فإن لا يفعل أبو هاشم «يعنى أخاه المغيرة» فربما أفعل، واغد غدا إلى السوق، فخذ لى عينة «يعنى مما يباع» فغدا عبدالله إلى السوق، ففعل ما أمره به أبوه. ثم باعها، وأقام أياما ما يبيع فى السوق طعاما ولا زيتا غير عبدالله بن أبى بكر من تلك العينة، فلما فرغ أمره أبوه أن يدفعها إلى الأسديين ففعل.

أما المغيرة بن عبدالرحمن أخو أبو بكر، فكان أيضا جوادا وكان يطعم الطعام حيثما ينزل، وينحر الجزور، ويطعم من جاء، وكان قد شارك فى الغزو مع مسلمة بن عبدالملك فى بلاد الروم، وأصيبت عينه فى احدى هذه الغزوات، فصار أعور، ومن طريف ما وقع له بعد ذلك أنه بذل الطعام للناس فى يوم من الأيام، التى تعود أن يفعل فيها ذلك، وكان بين الطاعمين أعرابى جعل يديم النظر إلى المغيرة، ولا تمتد يده إلى الطعام، ولفت تصرفه نظر المغيرة فسأله : ألا تأكل من هذا الطعام ؟ مالى أراك تديم النظر إلىّ.

فقال البدوى فى صراحة الصحراء التى لا تعرف المواربة : إنه ليعجبنى طعامك، وتريبنى عينك.

قال : وما يريبك من عينى ؟

قال : أراك أعور، وأراك تطعم الطعام، وهذه صفة الدجال.

فقال له المغيرة : إن الدجال لا يصاب بعينه فى سبيل الله[١] .

وقد أجرى سخاء المغيرة ألسُن الشعراء بالثناء عليه، فقد قدم الكوفة يوما، فنحر الجزور، وأطعم الطعام، والثريد على الأنطاع، فقال الأقيشر الأسدى :

---

(١) نسب قريش ص ٣٠٤، ٣٠٥.

أتاك البحر طمّ على قريش
مغيرىٌ وقد راع ابن بشر
ومن أوتار عقبة قد شفانى
ورهط الحاطبى ورهط صخر
فلا يغررك حسن الرأى منهم
ولا سرج ببزيون[1] ونحر

ومن سخاء المغيرة أنه وقف ضيعة على طعام يصنع بمنى أيام الحج.

وكان أخوه عكرمة أيضا من ذوى الشأن فى أيامه، وكان ثقة، قليل الحديث، وفيه يقول حكيم بن عكرمة الدّيلىّ لما تزوج بنت عمر بن عبدالله بن معمر :

تبشر يا ابن مخزوم بخود
أبوها من بنى تيم الرِّباب
أتتك بمال شيراز وفسّا
وسايور الذى دون التقاب
فتلك مآثر الأموال لا ما
تُجمّع يوم سعدى والرّباب

هذا حديث عابر عن أخوى أبى بكر قد كان لهما شأن فى قومهما أما أبو بكر فقد ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان يوم الجمل لما يبلغ مبلغ الرجال بعد، فقد استصغر وردّ هو وعروة بن الزبير، وهذا يعنى أن فقده بصره كان بعد أن تقدمت به السن، وسمى راهب قريش لكثرة صلاته ولفضله، وقد روى عن أُمّىْ المؤمنين عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما، وعن أبى مسعود الأنصارى .

---

(١) البزيون السندس أو رقيق الديباج.

وكان شأنه شأن فتيان قريش، له من النعمة واليسار ما يجعل حياته سهلة رخيّة، فقد كان يلبس كساء الخزّ، ويميل إلى الأناقة فى مظهره وملبسه. فكان يأخذ من شاربه أخذا حسنا، ولا يحفيه، وفى مظهره ذلك مشابهة كثيرة مما عرف عن سعيد بن المسيّب وسواه من فقهاء المدينة.

وكان أبو بكر حريصا على أن يكون حسن السمعة، طيب الأحدوثة، معروفا بالأمانة والثقة، فقد استودع عنده عروة بن الزبير مالا لبنى مصعب، فأصيب ذلك المال، وذهب كله أو بعضه فى ظروف لا مسئولية لأبى بكر عنها. فأرسل إليه عروة يقول : لا ضمان عليك، إنما أنت مؤتمن، ولكن أبا بكر لا ترضى له همته ولا مكانته ذلك، وعلى الرغم من أنه يعرف أنه لا ضمان عليه ـ إذ كان كلاهما فقيها ـ فقد أبى إلا أن يرد المال الضائع، وقال : قد علمت أن لا ضمان علىّ، ولكن لم تكن لتحدث قريش أن أمانتى خربت. وباع جانبا من أملاكه، فقضى بثمنه ما فقد[١].

وكان أحد الفقهاء الذين كان يستشيرهم عمر بن عبدالعزيز إذا ما عرضت له قضية، وكان ممن صحب عمر بن عبدالعزيز لتلقى الوليد حين حضوره إلى المدينة.

ولما فسد الأمر بين سعيد بن المسيب وإسماعيل بن هشام المخزومى والى المدينة أيام عبدالملك حاول أن يكسر حدة الخلاف، ويوقع الصلح بين سعيد والوالى، وواجهه سعيد بعنف وهو فى محبسه، ولكنه لم يتأثر منه، لأنه كان يريد إزالة الجفوة بينهما، ومن متابعة الحوار الذى دار بينهما يتبين أن أبا بكر كان هادىء الطبع لين العريكة، يحب أن يعالج الأمور فى

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٥٤

أناة ورفق، بدون تحد ولا عناد، على النقيض من سعيد بن المسيب الذى كان حاد الطبع، والذى جرّت عليه صلابته كثيرا من المتاعب والآلام.

وقد أثر عن أبى بكر أنه كان يقول : إنما هذا العلم لواحد من ثلاثة، لذى نسب يزين به نسبه أو لذى دين يزين به دينه، أو مختلط بسلطان ينتجعه به، ولا أعلم أحدا أجمع لهذه الخلال من عروة بن الزبير، وعمر بن عبدالعزيز، كلاهما ذو دين وحسب، ومن السلطان بمنزل[1].

وكان منهج أبى بكر هو منهج فقهاء المدينة الذين يتزعمهم سعيد بن المسيب، وكانت لهم وجهة نظر تكاد تكون واحدة فى تناول المشكلات المختلفة، وقد روى عن أبى بكر أنه قال : ما عليه أهل المدينة هو السنة.

وقد أخذ عنه كثير من مشاهير العلماء فى عصره، ومن أبرزهم ابن شهاب الزهرى، الذى عده من بين الأربعة الذين لاقى بهم بحورا.

وروى عنه أولاده عبدالملك، وعمر، وعبدالله، وسلمة، وأشهر أولاده فى الرواية عنه هو عبدالملك.

وفاته :

وقد جرى على أبى بكر ما جرى ويجرى على كل حىّ، فانتقل إلى رحمة ربه سنة أربع وتسعين هجرية على الأرجح، وكانت تسمى سنة الفقهاء لكثرة من توفى منهم فيها.

وقيل فى وفاته : إنه صلى العصر، فدخل مغتسله فسقط، فجعل يقول : والله ما أحدثت فى صدر نهارى هذا شيئا، فما غربت الشمس حتى انتقل إلى رحمة الله.

---

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص١٨٧.

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

(٩٨هـ)

أحد فقهاء المدينة السبعة، الذين كان يدور عليهم أمر الفتوى، كان عالما فاضــلا، فقيها تقيا، وكان شاعـرا رقيقا غزلا، ذا حس مرهف، وعاطفـة جياشة، وخلق سمح، وكـان إلى جانب هذا كله ثقة، كـثير الحديـث، وحسبه أنه أحـد الفقهـاء الذين يرجع إليهم أهل المدينة فى معرفة أمور دينهم.

وقـد قيـل عنه : لم يكن بعـد الصحـابة فـقـيه أشـعـر منه، ولا شـاعر أفـقه منه، ذلك هو عـبيدالله بن عـبد الله بن عتـبة بن مسعود.

أسـرته :

كان أبوه عبـدالله رجلا صالحا. تولى بعض الأعمـال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه. فـحمـد سيـرته. ولعبـيدالله أخوان، هـما عون، وعـبدالرحمن، وقـد اشتهـر عون بالفـقه والأدب والنسك، وكان وثيق الصلة بعمر بن عبدالعزيز وله دالة عليه، وكان يدخل عليـه فى أى وقت يشاء. بلا إذن مـسبق، وهو الذى توجـه إليه جرير بقوله لما طال بالشعراء الانتظار أمام باب عمر :

يا أيهـا القـارىء المـرخى عـمـامـتـه
هذا زمـانك إنـى قـد مـضى زمـنى

أبلـغ خليـفـتـنا إن كنـت لاقـيـه
أنى لدى البـاب كـالمـصـفـود فى قـرن

وكان عـون هذا يرى الإرجاء ثم رجع عـنه، وله شعـر يقول فيه :

فـأول مـا أفـارق غـيـر شك
أفـارق مـا يقـول المـرجـئـونا

وقـــــالوا مــــؤمـن من آل جــــور
ولـيس الـمـــــؤمـنون بـجـــــائـرينـا
وقـــــالوا مـــؤمـن دمـــــه حـــلال
وقـــد حـــرمت دمـــاء المــــؤمنيـنا

وكانت له مشـاركة فى أحداث عصره، فقـد اشترك فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، وهرب بعد هزيمة ابن الأشعث ، فلجأ إلى مـحمـد بن مروان بن الحكم بنصـيبـين فأمنه ، ووكل إلـيه تأديب ولديه مروان وعـبدالرحمن، وقد سأله يـوما : كيف رأيت ابنى أخيك؟

فقـال : أما عـبدالرحـمن فطفل، وأما مـروان، فإنى إن أتيـته حجب، وإن قعـدت عنه عتب، وإن عاتبـته صخب، وإن صاحـبته غضب، ثم تركه ولزم عمر بن عبدالعزيز.

وأما عبدالرحمن فلم تكن له نباهة أخـويه ولا فضلهما فخمل ذكرُه[1] . وأما جـده فعتبـة بن مسعود أخـو عبدالله بن مسـعود صاحبا رسول الله ﷺ.

شـــيوخـــه :

كان عـبيد الله من فضــلاء التابعين، وروى الحـديث عن أبيه، وأرسل عن عم أبيه عبـدالله بن مسعود، وعـمار بن ياسر، وأبى هريرة وابن عبـاس وعائشــة، وابن عمر، وعـثمـان وسـهل ابنى حنيف، والنعـمان بن بشـير وأبى سـعيـد الخدرى وأبى طلـحة الأنصارى، وأبى واقد الليثى، وفاطمة بنت قيس، وزيد بن خالد،

---

(١) راجع الاغانى جـ ٩ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ طبع دار الكتب.

وعبدالرحمن بن عبدالقارى، وأم القيس بنت محصن[١] .

تلاميـــذه :

روى عنه أخوه عون بن عـبدالله، ومحمـد بن شهاب الزهرى، وسعـد بن ابراهيم، وأبو الزناد، وصالح بن كـيسـان وعراك بن مـالك ومـوسى بن أبى عـائشـة، وأبو بكر بن الجـهم العـدوى، وضمـرة بن سعـيد، وطلحـة بن يحيى بن طـلحة، وعبـدالله بن عبيدالله الربذى، وعـبدالمجيد بن سهل بن عـبدالرحمن بن عوف، وحصيف الجذرى[٢] .

علمه وقوة حافظته :

كان عبيد الله ذا حافظة واعية حتى قال عن نفسه فيما يرويه ابن حجر : ما سمعت حديثـا قط، ما شاء الله أن أعيه إلا وعيته. وكانت هذه المقدرة إلى جـانب دينه وتقواه مؤهلات له أن يكون أحد فقهاء المدينة السبعة، وأن ينال احترام العلماء وتقديرهم له، وثناءهم عليه، سواء كانوا معاصرين له، أو متأخرين عنه، وحتى أدهشت غزارة علمه رجلا مثل الزهرى فقال عنه : كنت إذا لقيت عبيد الله بن عبدالله بن عتبة فكأنما أفجر به بحرا[٣] .

ويقول فى مجـال آخر : ما جالست أحـدا من العلماء إلا أرى أنى قـد أتيت على ما عنده، وقـد كنت اخـتلفت إلى عروة حـتى ماكنت أسمع منه إلا معادا ما خلا عـبيدالله بن عتبة، فإنى لم آته إلا وجدت عنده علما طريفا[٤] .

وروى عنه أيضا قـوله : سمعت من العلم شيـئا كثيـرا، فلما لقيت عبيدالله بن عبدالله كأنى كنت فى شعب من الشعاب فوقعت

---

(١) ، (٢) راجع تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٣، وتذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧٤..
(٣) راجع العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٤ تحقيق محمد سعيد العريان.
(٤) راجع تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٤.

فى الوادى، وفى رواية أخرى : فسرت كأنى لم أسمع من العلم شيئا[١] .

وحديث الزهرى عنه حديث رجل لاقاه ودارسه وأخذ عنه وعن غيره، واستطاع أن يدرك عن قرب الفرق بينه وبين غيره من العلماء وهذه الغزارة فى العلم مع رحابة الأفق، وطلاوة الحديث، وحسن السمت. وعلو النفس ـ كل هذه القدرات جعلت رجلا مثل عمر بن عبدالعزيز يتمنى الجلوس إليه، والاستماع إلى حديثه، ويقول : ليت لى مجلسا من عبيدالله بن عتبة بألف دينار[٢] .

وقد أورد ابن خلكان هذا الخبر بتفصيل أتم حيث يقول : قال عمر بن عبدالعزيز : لأن يكون لى مجلس من عبيدالله أحب إلىّ من الدنيا وما فيها، وقال لأصحابه : والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيدالله بألف دينار من بيت المال.

فقالوا له : يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك ؟

فقال : أين يذهب بكم، والله، إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف.

إن فى المجادلة تلقيحا للعقله وترويحا للقلب، وتسريحا للهم، وتنقيحا للأدب[٣] .

وكان دائما يقول : لو كان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة حيا ماصدرت إلا عن رأيه، وهذه ثقة مجرب فى رجاحة عقل عبيدالله، واستقامة دينه، وسداد رأيه. وحينما يقول عمر ذلك بعدما جلس

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٨٩. (٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٢.
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

بين يديه سنوات يتلقى على يديه العلم والحديث والأدب إنما يقوله عن تجربة ودراية لا يبتغى بما يقول إلا مرضاة الله وهو من يُعرف نسكا وزهدا وعدلا حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين.

عبيدالله وعمر بن عبدالعزيز :

كانت صلة عبيدالله بعمر بن عبدالعزيز وثيقة إذ كان معلمه، وله عليه من الدالة والحقوق ما للأستاذ على تلميذه، ولعل هذا هو سبب الإجلال والتقدير اللذين يبدوان فى حديث عمر عن عبيد الله، حتى إنه لما ولى الخلافة قال : لو كان عبيدالله حيا ماصدرت إلا عن رأيه.

ولعل المزاج المشترك بين الرجلين كان يجمع بينهما، فقد كان عمر فى شبابه مترفا مولعا بالغناء مع علم وعفاف وتقى ودين، وكانت روح الشاعر التى تلوّن حديث عبيدالله فيما أظن هى التى قربته من قلب عمر، ولعل هذه الصلة توثقت لما كان عمر واليا على المدينة وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الصلة لم تمنع عبيدالله أن يجابه عمر بما يراه أنه قد أخطأ فيه، وأن يحاسبه عليه حسابا أقل ما يوصف به أنه ليس فيه مجاملة، ولا حتى لطف فى توجيهه إلى الصواب، وقد كان ما يمتاز به عمر من متانة الخلق والدين واستقامة المسلك ما جعله يحفظ لأستاذه منزلة الأستاذية من غير أن تأخذه عزة الحكم، ولا سطوة السلطان، ويبدو أن عمر فى صدر شبابه بحكم انتسابه لبنى أمية، وما كان يجرى فى مجالسهم قد جرى على لسانه ما يفهم منه أنه عيب لبعض الصحابة، فبلغ ذلك عبيدالله، وكان من عادة عمر أن يتردد عليه، ويأتى مجلسه من حين لآخر،

ومما لا شك فيه أن عبيدالله كان يتلقاه بالبشر والترحاب والإقبال عليه بما يليق برجل فى مثل مكانته ومركزه وسلطانه وأخلاقه ومعرفته، إلا أن عبيدالله بعدما بلغه ما نسب إلى عمر من الوقوع فى بعض الأصحاب لم يلتفت إليه حين جاءه، ولم يستقبله بالترحاب والبشاشة التى عهدها منه، وكان فى عمر عقل وحكمة وذكاء، فأدرك أن هناك سببا جعل عبيدالله يغير من عادته معه فأقبل عليه قائلا فى أدب جمٍّ وتواضع تحسده عليه ملوك الدنيا وسادتها: يا أبا محمد، إن لك لشأنا، فإن رأيت لى عذرا فاقبل عذرى.

فقال عبيدالله : أتتهم الله فى علمه ؟

أجاب عمر : أعوذ بالله.

تابع عبيدالله : أتتهم رسول الله ﷺ فى حديثه ؟

ويجيب عمر : أعوذ بالله.

فيعقب عبيدالله قائلا : يقول الله عز وجل ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾[1] ، وأنت تقع فى فلان، وهو ممن بايع، فهل بلغك أن الله سخط عليه بعد أن رضى عنه؟

ويجيب عمر مذعنا للحق ممتثلا له : والله لا أعود أبدا[2] .

والذى يقف على هذا الحوار، لا يملك إلا أن يثنى على عبيدالله بشجاعته فى الحق، وبذله النصيحة لله، وممارسة دوره فى الأستاذية والتوجيه حتى ولو كان ذلك مع الوالى اليوم والخليفة غدا وهذا أمر محمود ولا شك، إلا أن الموقف الذى يملأ النفس والقلب بالإجلال والإعظام هو موقف عمر، الذى لم يأنف من قبول النصيحة، ولم يستنكف من الاعتراف بالخطأ، ولم يتردد فى

---

(١) سورة الفتح آية رقم ١٥.   (٢) راجع الأغانى جـ ٨ ص ٩٥.

الاعتذار عما بدر منه، وما أجمل امتثاله للحق حينما بدت له ملامحه من آيات الله سبحانه، وصدق حديث من يحاسبه، وأكثر من ذلك وأبلغ فى السمو عياذه بالله، مما ظن أنه قد يرمى به بالنسبة لكلام الله سبحانه وحديث نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

ولا شك أن الطبيعة السمحة للرجلين جعلت الموعظة تبلغ غايتها، وتفعل فعلها، وتؤدى رسالتها، وهكذا يكون الجهر بالحق والانصياع له عظمة للقائل والمستجيب على السواء.

تلك المقدرة التى أوتيها عبيدالله من الجهر بما يعتقده الحق حتى ولو كان غير ما يرى الوالى، حتى وإن كان ذلك الوالى عمر بن عبدالعزيز القريب إلى نفسه، المحبب إلى قلبه، تتجلى فى الموقف التالى بين عمر بن عبدالعزيز وعروة بن الزبير، فقد كان عبيد الله وعروة يجريان فى قرن فقها وعلما وفضلا، وهما من فقهاء المدينة السبعة، دخلا معا على عمر بن عبدالعزيز، وهو أمير المدينة، فجرى ذكر عائشة وعبدالله بن الزبير، فقال عروة : سمعت عائشة تقول : ما أحببت أحدا حبى عبدالله بن الزبير لا أعنى رسول الله ﷺ ولا أبوى . فلما سمع عمر ذلك قال : إنكم لتنتحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لكل مسلم معه فيها نصيبا.

فقال عروة : بركة عائشة كانت أوسع من أن لا يرى لكل مسلم فيها حق. ولقد كان عبدالله منها بحيث وضعته الرحم والمودة التى لا يشرك كل واحد منهما فيه عند صاحبه أحد.

فقال عمر : كذبت.

فرد عروة : هذا عبيد الله بن عتبة بن مسعود يعلم أنى غير

كاذب، وأن من أكذب الكاذبين من كذَّب الصادقين. فسكت عبيدالله، ولم يدخل بينهما في شيء، فأقف بهما عمر، وقال : اخرجا عني، ثم لم يلبث أن بعث إلى عبيدالله بن عتبة رسولا يدعوه لبعض ما كان يدعوه إليه، فكتب إليه عبيد الله يقول :

لعمر ابن ليلى وابن عائشة التى
لمروان أدّته، أب غير زُمّل[1]
لو انهم عماً وجداً ووالدا
تأسوا فسنُّوا سنّة المتعطل
عذرت أبا حفص وإن كان واحدا
من القوم يهدى هديهم ليس يأتلى
ولكنهم فاتوا وجئت مصليًّا
تقرّب[2] إثر السابق المتمهل
وعُمْتَ[3] فإن تسبق فضنء مبّرز
جواد، وإن تُسبق فنفسك فاعدل
فما لك بالسلطان أن تحمل القذى
جفون عيون بالقذى لم تُكَحَّل
وما الحق أن تهوى فتسعف بالذى
أويت إذا ما كان ليس بأعدل
أبى الله والأحساب أن ترأم[4] الخنى
نفوس كرام بالخنى لم تُوكَّل[5]

وتعود عبيد الله أن يمّر بعمر من وقت لآخر، لا يحول بينه

(١) الزمّل : الضعيف
(٢) التقريب عدو دون الإسراع.
(٣) دعمت : سرت.
(٤)ترأم الخنى : ترضاه.
(٥) الأغانى جـ ٩ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

وبين ذلك حارس ولا حاجب، ولكنه ذات يوم ذهب كعادته، إلا أن الحاجب لم يأذن له، ورد قائلا : إن عنده عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو مُختل به، فما كاد يسمع ما قاله الحاجب، حتى انصرف مغضبا ظانًا أن هذه تعليمات عمر، ولم يكد يستقر به المكان حتى بعث إلى عمر بهذه الأبيات الغاضبة :

وإنى امرؤ من يصفنى الود يلفنى
وإن نزحتْ دارٌ به دائم الوصل

عزيزٌ إخائى لا ينال مودتى
من الناس إلا مسلم كامل العقل

ولولا اتقائى الله قلت قصيدة
تسير بها الركبان أبردها يغلى

بها تنقض الأحلاس[1] فى كل منزل
وينفى الكرى عنه بها صاحب الرحل

كفانى يسيرُ إذ أراك بحاجتى
كليل اللسان ما تُمُرُّ وما تُحلى[2]

تلاوذ[3] بالأبواب منى مخافةَ الملامة
والإخلاف شرٌّ من البخل

أبنْ لى فكن مثلى أو ابتغ صاحبا
كمثلك إنى تابع صاحبا مثلى

وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا
إذا لم يؤلفْ روحُ شكلٍ إلى شكلِ[4]

---

(١) الاحلاس جمع حلس وهو ما يلى ظهر البعير أو الدابة والمقصود أنها تقلب الأمور رأسا على عقب.

(٢) ما تُمر وما تجلى يعنى لا تنفع ولا تضر.

(٣) تلاوز : تراوغ

(٤) راجع الأغانى جـ ٨ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

وقد اختلف ترتيب هذه الأبيات فى بعض كتب الأخبار وهى تكشف عن مدى اعتزاز عبيدالله بنفسه، وحرصه على كرامته، ووقوفه من عمر بن عبدالعزيز موقف الندّ، فليس معنى الولاية أن يحجب الأكابر عن بابه، أو أن ينتظر من عبيدالله أن يعود إليه بعد أن يرده حاجبه عن بابه، ويعلن فى صراحة أنه لا يحول بينه وبين التشهير به فى شعره إلا تقوى الله، ويعلن لعمز فى وضوح أنه لا يقبل صحبته إلا إذا كان عمر يراه مساويا له، ولا يرى لنفسه عليه تقدما، فإن كان عمر غير راغب فى ذلك فليس هناك داع إلى هذه الصحبة وليبحث له عن صاحب سواه، لأن الأصحاب إذا لم يجمع بينهم تماثل فى الأمزجة فإن تفرقهم وشيك. وفى هذا إلماح إلى معنى الحديث النبوى «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[١].

وما كاد عمر يعلم بأمر هذه الأبيات، وغضبة عبيدالله حتى بعث إليه باثنين من أصحابه المقربين إليه هما أبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة وعراك بن مالك يبلغانه اعتذاره ويخبرانه أن عمر يقسم بالله ما أعلم بإتيانك، ولا برد الحاجب إياك، فعذره عبيدالله وقبل منه.

ويبدو أن أحداث الرضا والخصام قد تكررت بين عبيدالله وبين عمر، فقد روى عن ابن شهاب الزهرى قال : جئت عبيدالله بن عبدالله يوما فى منزله، فوجدته ينفخ، وهو مغتاظ، فقلت له : مالك؟

فقال : جئت أميركم آنفا، فسلمت عليه وعلى عبدالله بن عمرو ابن عثمان فلم يردا علىّ، فقلت :

---

(١) الحديث متفق عليه .

فـمـا تراب الأرض منهـا خلقـتـمـا
ومنهـا المـعـاد والمصير إلى الحشر
ولا تأنـفـا أن تسـألا وتسلمـا
فـمـا حـشى الإنسـان شـرا مـن الكبر
فلـو شـئـت أن ألقى عـدوا وطاعـنا
لألفـيـتـه أو قـال عندى فى السـر
فـإن أنـا لم آمـر ولم أنـه عنكـمـا
ضـحكت له حـتى يلجَّ ويسـتـشـرى
وكـيف يريدان ابن تـسـعـين حـجـة
على مـا أتى وهو ابن عـشريـن أو عشـر

فقلت له : رحمك الله، أتقول الشعر فى فضلك ونسكك؟!
قال : إن المصدور إذا نفث برأ[1] .

ويبدو أن هذه المعاتبات لم تأخذ طريقها بين عبيد الله وبين عمر إلا بعدما تقدمت السن بعبيد الله ، وكُف بصره ، وربما وجد الوشاة فى ذلك سبيلا ليوغروا صدر عبيدالله على عمر، منتهزين عدم إبصاره، أو ربما يكون عمر أثناء مروره بعبيد الله فى شغل شاغل لم يدع له فرصة الانتباه للزائر أو الانصراف إليه كما تعود عبيدالله منه قبل ذلك، وكان فقد بصره فيما أظن سببا نفسيا جعله يستشعر من تلميذه تقصيرا فى حقه، أو قعودا عن القيام بالواجب نحوه، إلى جانب ما كان يصوره له مصاحبوه من انصراف عمر عنه وعدم اهتمامه به، وربما أضافوا إلى ما سبق شيئا على لسان عمر فيه لون من العتب أو اللوم لعبيد الله، ولعلنا نستطيع أن نفهم على ضوء هذا

---

(١) الاغانى جـ ٨ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.   (٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٤.

الاستنتاج ما رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد قائلا : وكان قد بلغ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود شىء يكرهه عن عمر ابن عبدالعزيز فكتب إليه :

أبا حفص أتانى عنك قول
فضقت به وضاق به جوابى
أبا حفص فلا أدرى أرغمى
تريد بما تحاول أم عتابى؟
فإن تك عاتبا نعتب وإلا
فما عودى إذا بيراع غاب
وقد فارقت أعظم منك رزءا
وواريت الأحبة فى التراب
وقد عزّوا علىّ وأسلمونى
معا فلبست بعدهمُ ثيابى

ويبدو أن هذه الحساسية المفرطة قد أفسدت على عبيدالله صلته بإخوانه، ولاشك أن العامل النفسى كان بعيد الأثر فى هذه الحساسية، لا سيما بعد فقده بصره، فقد انعكس أثر ذلك أيضا على موقفه من صديقيه عراك بن مالك، وأبى بكر بن حزم، فقد مضى عليهم زمن، وهم رفقة وأصدقاء يتجالسون ويتجاذبون أطراف الحديث، ويخوضون فى أبواب من الفقه وضروب من العلم، وتصرف الزمن بهم حتى أصيبت عينا عبيد الله فكُف بصره فى شيخوخته، وتولى ابن حزم إمارة المدينة، وتولى عراك بن مالك قضاءها، وكانا أثناء تقلدهما لعملهما يمر الواحد منهما بعبيدالله، فلا يقف إليه ولا يسلم عليه كما كانت

عادتهما من قبل، وكان لا يعـرف منهما ذلك لذهاب بصره، فلما أخبر بصنيعهما ممن حوله غضب وثار، وأنشد :

ألا أبلـغـــا عـنى عـــراك بن مـــالك
ولا تدعـــــا أن تـثنـيـــــا بأبـى بكـر
فـقـد جـعلت تبـدو شـــواكل منكمـــا
كـــأنكمـــا بى مـــوقـران من الـصـخـــر
وطاوعـتـمـــا بى داعكا[1] ذا مـعـــاكـة[2]
لعـــمـرى لقـــد أزرى ومـا مـــثله يزرى
ولولا اتقـــائى ثم بقـــيـــاى فـــيكـمـــا
للمـــــتكمـــا لومـــا أحـــرَّ مـن الجـــمـــر
فـــمـــا تراب الأرض منهـــا خلقـــتـمـــا
ومنهـــا المـعـــاد والمـصـيـر إلى الحـشـــر
ولا تأنـفـــــا أن تســـــألا وتسـلمــــا
فـمـــا حـــشى الإنسـان شـــرا مـن الكبــر
فلـــو شــــئـــت أن ألقى عـــــدوا وطاعـنا
لألفـــيـــتـــه أو قـــال عنـدى فى الســــر
فــــإن أنـــا لم آمـــــر ولم أنـــه عنكـمـــــا
ضـحكت لـــه حـــتى يلجّ ويســـتـشــرى[3]

ويلاحظ أن بعض الأبيات هنا مكرر مع مـا سبق، ولعله كرر هذه الأبيات فى الـمناسبتـين ما دام الموضـوع واحدا والشــاعر واحــدا أيضـــا، ويلاحظ أن الأبيــات الأربـعــة الأولى لم ترد فى القصــيدة السابقة، وأن الأبيــات الأخيرة قد تكررت مع اخــتلاف طفيف فى التركيب وإن كانت تبدو هنا أكثر اتساقا منها هناك.

---

(١) الداعك : الاحمق. (٢) المعكة : الحمق. (٣) الاغانى جـ ٩ ص ١٤٥.

أيام الشباب :

كان عبيدالله فى شبابه يستهويه الجمال، ويأسر فؤاده، ولا يرى بأسا من أن ينفث عن نفسه بمقطوعات يعبر فيها عن وجده وهواه، وما يعانيه من لوعات الهوى وحرقاته، على عادة الشعراء الغزليين، ولكن فى عفة، ورقة حاشية، وترفع عن هجر القول

ويروى أن امرأة جميلة من هذيل قدمت المدينة من ناحية مكة، فتقدم كثيرون لخطبتها، وكاد أن يذهب بعقول أكثرهم جمالها، وقد شارك عبيدالله فى الحديث عن حسنها، ومعالجة هواها، واستشهد على صدق معاناته بفقهاء المدينة السبعة الذين يعدونه واحدا منهم. وفى هذا يقول :

أحبك حبًا لو علمت ببعضه
لجدت ولم يصعب عليك شديد
وحبك يا أم الصبىّ مُدلّهى
شهيدى أبو بكر، وأنى شهيد
ويعلم وجدى القاسم بن محمد
وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفى سليمان علمه
وخارجة يبدى لنا ويعيد
متى تسألى عّما أقول فتخبرى
فللحب عندى طارف وتليد

ولما بلغت هذه الأبيات سعيد بن المسيِّب قال : والله لقد أمن أن تسألنا، وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل ضدها[1] .

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٤٨.

زواجـه بعثمـة :

كان عبيـدالله قد تزوج امرأة اسمها عثمـة، وكان لها فى قلبه مكانة لا تدانيها مكانة، فوقع بينهـما بعض ما يوجب العتاب، ثم تطور الأمر حـتى انتهى بهمـا إلى الطلاق، ولكن حبـها لم يطلق فؤاده، ولم ينله رقاده، فأسهر ليله، وأرق نهاره، ولم يستطع أن يكتم ما به من هـواها، فانطلق شعـره ينفث حرقات فـؤاده، وما يلقاه من جراء ذلك الفراق الذى آلمه وأدمى قلبه.

ومن خبـر ذلك ما رواه الزبير بن بكار قال : قـال لى عمى : لقينى على بن صالح، فأنشدنى بيتا، وسألنى : من قائله ؟ وهل فيه زيادة ؟ فقلت : لا أدرى، وقد قدم ابن أخى ـ يعنى الزبير ـ وقلّ ما فاتنى شىء إلا وجدته عنده.

قال الزبير : وانشدنى عمى البيت ، وهو :

غـراب وظبـى أعـضب[1] القـرن ناديا
بصُـرم[2] وصـردان[3] العـشىٌ تـصـيح

فقلت له : قائله عبيدالله بن عبدالله بن عتبة وبعده :

لعـمـرى لـئن شطت[4] بعـثـمـة دارها
لقـد كـدت من وشك الفـراق أليح[5]

أروح بـهمّ ثـم أغـدو بـمـثلـه
ويُحـسَب أنى فى الـثـيـاب صـحـيح

فكتبهما عمى، وانصرف بهما إليه

وقد كانت عثـمة قد ملكت فؤاده، واستولى حبهـا عليه، وعبر عن ذلك بقوله :

---

(١) أعضب القرن : مكسور القرن. (٢) الصرم : القطيعة والفراق.
(٣) الصردان جمع صرد وهو طائر ابقع أبيض البطن يتشاءم به.
(٤) شطّت : بعدت (٥) اليح : أعيا من الهموم.

تغلغل حب عثمة في فؤادي
فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب
ولا حزن ولم يبلغ سرور
صدعت[١] القلب ثم ذررت [٢] فيه
هواك فليم والتأم الفطور[٣]
أكاد إذا ذكرت العهد منها
أطير لو ان إنسانا يطير
غنيٌ النفس أن ازداد حبا
ولكنى إلى صلة فقير
وأنفذ جارحاك[٤] سواد قلبى
فأنت عليّ ما عشنا أمير[٥]

وقد تغنى بهذا الشعر المغنون فى عهده

وقد أورد صاحب الأغانى بعض المقطعات التى أنشدها عبيدالله فى زوجته عثمة بعد فراقهما، وتغنى بها المغنون ومنها:

كتمت هواها حتى أضرّ بك الكتم
ولامك أقَوام ولومهمُ ظلم
ألا من لنفس لا تموت فينقضى
عناها ولا تحيا حياة لها طعم
أأترك إتيان الحبيب تأثما
ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها قد كنت تزعم أنه
رشاد، ألا ياربَّما كذب الزعم

(١) صدعت : شققت. (٢) ذررت : نشرت مثل الريح تذرو التراب هنا وهناك.
(٣) الفطور : الشقوق (٤) جارحاك : عيناك (٥) الأغانى جـ ٩ ص ١٥١.

ومما غنى له أيضا :

عــفــتْ أطلال عــثـــمـــة بــالغـــمـــيم
فـــأضـــحت وهى مـــوحـــشـــة الرســـوم
وقـــــد كنّـا نحلُّ بـــهـــا وفـــيـــهـــا
هضـــيـم الكشـــح جـــائلة الــبـــريم[1]

وكـذلك ممـا غنى به من شعـره قوله أيضـا فى عثـمة بعـد فراقهما:

إن يــك ذا الدهــر قــــد أضـــــرّبنـا
من غـــيـــر ذحْل فـــربمـــا نفـــعـــا
أبــكــى عــلــى ذلـك الــزمـــــــان ولا
أحـسب شـــيـئا قـــد فـات مـــرتجــعـا
إذ نحــن فى ظــل نعــــمـــــة سلــفت
كـــانت لهـــا كل نــعـــمـــة تبـــعـــا

وسار هذا الشعر وانـتشر عن عبيدالله وبخاصـة بعدما تغنى به المغنون، وتناقل الناس ما يعانيه من لوعـة الصبابة، وعهدهم بمثـل هذا أن يؤثر عن الغزليـين من فتـيان الشـعراء، فمـا بالك بأحد فـقهاء المدينة السـبعة، فلمـا عوتب فى إثار هذا اللون من القول عنه، وقيل له : أتقول مثل هذا ؟

أجاب : فى اللدود راحة المفئود.

لعـبيدالله شـعر فى الحـكمة والفـخر بأرومـته ذكر صـاحب الأغانى جانبا منه، ومما سجله له من الشعر الذى يجرى مجرى المثـل وقال عنه صاحب الأغـانى إنه من الشـعـر الجيد الـفحل قوله :

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٥٠. والبريم هو الخلخال

إذا كان لي سرٌ فحدثته العدا
وضاق به صدري فللناس أعذر
وسرّك ما استُودعته وكتمته
وليس بسرٍّ حين يفشو ويظهر

وقوله لابن شهاب الزهري :

إذا قلت أما بعد لم يُثْنَ منطقي
فحاذر إذا ما قلت كيف أقول
إذا شئت أن تلقى خليلا مصافيا
لقيت وإخوان الثقات قليل

ومما قال عنه صاحب الأغاني إنه من جيد شعره وسهله قوله:

أعاذل عاجل ما أشتهي
أحبُّ من الآجل الرائث[1]
سأنفق مالي على لذتي
وأوثر نفسي على الوارث
أبادر إهلاك مستهلك
لمالي أو عبث العابث

ومما قاله مفتخرا بأخلاقه، وكتمانه أسرار أصحابه واعتزازه بآبائه :

شددت حيازيمي[2] على قلب حازم
كتوم لما ضُمّتْ عليه أضالعه
أداجي[3] رجالا لست مطلع بعضهم
على سرّ بعض إن صدريَ واسعه

---

(١) الرائث : البطيء.
(٢) حيازيمي جمع حيزوم وهو الصدر.
(٣) اداجي : أداري .

بنى لىَ عبيدالله فى ذروة العلا
وعتبه مجدا لاتنال مصانعه

وكان يعجبه أن يسمع ثناء على شعره واستحسانا لقوله وهو وإن كان أحد الفقهاء السبعة إلا أن الملكة الشعرية كانت أظهر، وكان يعجبه أن يتغنى الناس بشعره ويرددوه وقد التقى به أحد الشعراء المعاصرين له ويسمى جامع بن مرخية فأنشده ثلاثة أبيات قال فيها :

لعمر أبى المُحصين أيام نلتقى
لما لا نلاقيها من الدهر أكثر
يعدُّون يوما واحدا إن أتيتها
وينسون ما كانت على الدهر تهجر
وإن أولع الواشون عمدا بوصلنا
فنحن بتجديد المودة أبصر

فأعجب ابن مرخية ما قال عبيدالله وهو من شعراء الحجاز وهو الذى يقول :

سألت سعيد بن المسيِّب مفتى الـ
مدينة هل فى جب ظمياء من وزر
فقال سعيد بن المسيِّب إنما
تلام على ما تستطيع من الأمر

فلما بلغ قوله سعيدا قال : كذب، والله ما سألنى ولا افتيته[١].

بصره بالفنون :

كان عبيدالله رجلا ذا ذوق شاعرى، وكان يطرب للحن الجميل، والصوت الآسر، وكان له إلمام بالموسيقى لأنها صنو

---

(١) راجع الاغانى جـ ٩ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

الشعر وما الشعر إلا موسيقى سرت فى الألفاظ فتغلغلت فى المشاعر والأحاسيس وكان عبيدالله مثل غيره من الفقهاء المشهورين، والعلماء الذين لهم قدم راسخة فى حقل الشرع، وعرفوا باستقامة الدين، ونقاء الفطرة، وسماحة الخلق، وسعة الأفق فى معالجة الأمور لا يضيرهم أن يلموا بألوان من الفنون كالشعر والموسيقى، وما إلى ذلك .

وكان أهل المدينة معروفين برقة الطبع، وحلاوة المزاح، وحسن الأدب عند الاستماع، والاهتزاز للقول الجميل، والصوت الشجّى حتى روى عن عبدالله بن جعفر أنه قال : إن لى عند السماع هزة لو سئلت عندها لأعطيت، ولو قاتلت لأبليت. وأخباره فى هذا المجال لا حصر لها، وهى مبثوثة فى كتب الأخبار والأدب.

وقد روى صاحب العقد الفريد عن الأصمعى أنه مرّ بدار الزبير بالبصرة فإذا شيخ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ريحانة جالس بالباب عليه شملة تستره، يقول الأصمعى فسلمت عليه وجلست إليه. فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سويداء تحمل قربة، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها.

فقال لها : بالله غنى صوتا.

فقالت : إن موالىّ أعجلونى

قال : لابدّ من ذلك.

قالت : أما والقربة على كتفى فلا.

قال : فأنا أحملها. فأخذ القربة منها، فاندفعت تغنى :

فؤادى أسير لا يفكّ ومهجتى
تفيض وأحزانى عليك تطول

ولى مقلة قرحى لطول اشتياقها
إليك وأجفانى عليك همول
فديتك أعدائى كثير وشقتى
بعيد وأشياعى لديك قليل

فطرب وصرخ صرخة، وضرب بالقربة إلى الأرض فشقها، فقامت الجارية تبكى، وقالت : ما هذا جزائى منك، اسعفتك بحاجتك فعرّضتنى لما أكره من موالىّ.

قال : لا تغتمى، فإن المصيبة علىّ حصلت، ونزع الشملة، ووضع يدا من خلف ويدا من قدام، وباع الشملة، وابتاع لها قربة جديدة، وقعد بتلك الحال.

فاجتاز به رجل من ولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، فعرف حاله، فقال : يا أبا ريحانة، أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[١].

قال : لا، يا ابن بنت رسول الله، ولكن من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢].

فضحك، وأمر له بألف درهم[٣].

وتروى كتب الأخبار أن عددا من أعلام العلماء المشهورين لم يكونوا يستنكفون أن يكون لهم معرفة بأصول النغم والضرب على الآلات. وقصة الشعبى، فى مجلس بشر بن مروان، وهو يوجه أحد العازفين أن يشد أوتاره، ويحكم الضرب قصة مستفيضة ومن هذا القبيل ما يبدو أن عبيدالله كان على

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦. (٢) سورة الزمر آية ١٧ ـ ١٨.
(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٢١٤ ـ ٢١٥، جمع الجواهر ص ٤٠.

علم بأدوات الموسيقى وآلات الطرب، فقد ذكر اسم «البربط» فى مجلس يزيد بن عبدالملك، فتساءل يزيد ليت شعرى ما هو ؟

وكان عبيداالله حاضرا، فأجاب أنا أخبرك ما هو، ثم أخذ فى وصفه وصف الخبير به، وبمحتوياته، ودقائق أجزائه، وكان مما قال : هو محدودب الظهر، أرسح البطن له أربعة أوتار، إذا حركت لم يسمعها أحد إلا حرك أعطافه وهز رأسه[1] .

شيخوخته ووفاته :

كان عبيداالله قد أصيب بعينيه فى أخريات حياته كما مرَّ بنا، ويبدو أن هذه الفترة التى فقد فيها بصره كانت شديدة الوقع على نفسه، إذ كانت حساسيته المفرطة تجعله يستشعر أن إخوة الأمس، قد ضيعوا حق الأخوة بعدما امتد به العمر، وفقد نور البصر، واختلف فى وفاته رحمه الله بين سنوات ٩٤، ٩٥، ٩٨، ٩٩ هـ فرحمه الله رحمة واسعة.

وجولتنا مع عبيداالله قد غلب عليها حديث الشعر والعلاقات التى كانت تتجاذبها حالات الرضى والغضب مع محبيه وعارفى فضله.

ولكننا لم نجد مواقف فقهية معينة تفرد بها عمن سواه حتى عدَّ من الفقهاء السبعة، ويبدو أن سبب ذلك أن الأحكام كانت تصدر عن مجمع الفقهاء الذى كان يستشيره عمر بن عبدالعزيز وأن ما كان يغلب على عبيداالله من الشاعرية قد استأثر بانتباه المؤرخين وأصحاب الأدب فسجلوا له هذا اللون الذى تميز به عن زملائه الفقهاء فرحمه الله وأجزل مثوبته.

---

(١) رراجع العلماء بين التزمت والتسامح للمؤلف.

القاسم بن محمد

(١٠٨هـ)

أحد فقهاء المدينة ، كان ثقة عالما فقيها رفيعا ، إماما ورعا كثير الحديث ، ويبدو أنه كان عازفا عن الإمامة فى الدين والرياسة فى الفتيا ، على الرغم من سعة علمه ، وعمق فقهه ، وشدة ورعه ، واتباعه للسنة .

وكان رجلا سمحا ، لا يرضى بأن يصل ما بينه وبين أحد إلى درجة الخصومة ؛ ولهذا كان يتنازل عن حقه رغبة فى حسن الصلة بينه وبين الناس .

قال عنه مالك بن أنس : « كان القاسم قليل الحديث[1] ، قليل الفتيا وكان يكون بينه وبين الرجل المماراة فى الشىء ، فيقول له القاسم : هذا الذى تريد أن تخاصمنى فيه هولك ، فإن كان حقا فهو لك فخذه ، ولا تحمدنى فيه ، وإن كان لى فأنت منه فى حلٍّ وهو لك[2] .

وقد بلغ من حسن مسلكه ، وسلامة هديه ، واستقامة طريقه أن رجلا كابن سيرين كان يبعث من يتبعه فى الحج ليخبره بهديه حتى يقتدى به .

وقد كان علمه بالسنة مثار إعجاب العلماء ، حتى قال أبو الزناد: ما رأيت أحدا أعلم بالسنة من القاسم بن محمد ، وما كان الرجل يعد رجلا حتى يعرف السنة .

وكان راجح العقل ، قوى الحجة ، ثاقب الذهن ، وفيه يقول أبو الزناد أيضا : ما رأيت أحدً ذهنا من القاسم ، إن كان يضحك من أصحاب الشبه كما يضحك الفتى[3] .

---

(١) يقصد قليل الكلام .   (٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٥٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٥٦ .

وقد أخذ علمه وفقهه عن عمته أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها . وعن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأخذ عن ابن عمر العلم والورع وعن أبى هريرة الرواية عن رسول الله ﷺ ، وفى ذلك يقول : كانت عائشة قد استقلت بالفتوى فى خلافة أبى بكر وعمر وإلى أن ماتت ، وكنت ملازما لها مع ترهاتى ، وكنت أجالس البحر ابن عباس ، وقد جلست مع أبى هريرة ، وابن عمر ، فأكثرت ، فكان هناك ورع وعلم جمّ ، ووقوف عما لا علم له به[1] .

وكان يدرك مدى ما عنده من علم إلا أنه كان يتواضع ، فلا يريد أن يشير الناس إليه خشية الفتنة ، وكان يحب التثبث فى كل أموره ، وقد أثر عنه قوله : لأن يعيش الرجل جاهلا بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم .

ومن هديه أنه لم يكن يجيب إلا فى أمر بيّن ظاهر ، وقد قصده أحد أمراء المدينة يسأله عن أمر من الأمور ، فلم يستنكف أن يعلن عدم معرفته بما يسأل عنه ، وكان يقول : إن من إكرام المرء نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه .

وجاءه أعرابى ، وهو يصلى ، فسأله : أيما أعلم ، أنت أم سالم؟

فقال : سبحان الله ، كل سيخبرك بما علم .

فقال : أيكما أعلم ؟

قال : سبحان الله .

فأعاد فقال : ذاك سالم فانطلق إليه فسله .

فقام عنه ، ويعلق ابن إسحاق على هذا الخبر ، فيقول : كره

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٥٥ .

أن يقول : أنا أعلم فيكون تزكية ، وكره أن يقول : سالم أعلم مني فيكذب ، وكان القاسم أعلمهما[١] .

وكان للقاسم مجلس في مسجد رسول الله ﷺ ، وكان من عادته أن يأتي من بيته إلى المسجد في أول النهار ، فيصلي ركعتين ، ثم يجلس إلى الناس فيسألونه .

ولما تقدمت به السن وجاء موسم الحج كان يركب من منزله حتى يأتي مسجد منى فينزل عند المسجد ، فيمشي من عند المسجد إلى الجمار فيرميها ماشيا ، ثم يرجع إلى المسجد ماشيا، فإذا جاء المسجد ركب »[٢] .

وأبوه محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وأمه ابنة يزدجرد ملك الفرس ، وهو وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعلي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، أجمعين أبناء خالة .

وذلك أنه لما أتي بسبي فارس إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في السبي ثلاث بنات ليزدجرد ، فزوج على أولاهن لعبد الله بن عمر والثانية محمد بن القاسم والثالثة لحسين بن علي فأنجبت كل واحدة منهن أحد الفقهاء الأعلام ، فسالم بن عبد الله والقاسم بن محمد ، وعلي زين العابدين أبناء خالة وأمهاتهم بنات الملوك[٣] .

وكان العرب لا يستريحون لأبناء غير العربيات قبل أن ينشأ هؤلاء الأعلام ، ومما يذكرفي ذلك أن رجلا من قريش قال :

---

(١) راجع وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٥٩ .

(٢) راجع في كل ما سبق الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص ١٨٧ ـ ١٩٠ ـ طبع دار صادر بيروت .

(٣) راجع وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٦٧ تحقيق د. إحسان عباس .

كنت أجالس سعيد بن المسيِّب ، فقال لى يوما ، من أخوالك ؟

فقلت له : أمى فتاة ، فكأنى نقصت فى عينه ، فأمهلت حتى دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ فلما خرج من عنده ، قلت : يا عم ، من هذا ؟

فقال : سبحان الله ، أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة .

قال : ثم أتى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فجلس عنده ، ثم نهض ، قلت : يا عم ، من هذا ؟

فقال : أتجهل من أصلك مثله ؟ ما أعجب هذا ، هذا القاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق .

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة .

قال : فأمهلت شيئا ، حتى جاء على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فسلم عليه ثم نهض .

فقلت : يا عم ، من هذا ؟

قال : هذا الذى لا يسع مسلما أن يجهله ، هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فقلت : من أمه ؟

قال : فتاة .

فقلت : يا عم ، رأيتنى نقصت فى عينك لما علمت أن أمى فتاة ، أفما لى فى هؤلاء أسوة ؟

قال : فجللت فى عينه جدا[1] .

---

(١) راجع وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

عظته لعمر بن عبد العزيز :

كان القاسم مثل فقهاء المدينة وثيق الصلة بعمر بن عبد العزيز حتى قبل أن يكون واليا على المدينة ، لأنه كان يطلب العلم بالمدينة فتعرف على علمائها وفقهائها ، ولما مات عمه عبدالملك بن مروان اشتد حزنه عليه وأسفه على فراقه ؛ لأنه كان يخصه بعطفه ورعايته وبخاصة بعد موت أبيه عبد العزيز ، ومن مظاهر إعزاز عبد الملك لابن أخيه عمر أنه زوجه بابنته فاطمة ، ولما أبصر القاسم بن محمد اشتداد الحزن بعمر لفقد عمه حتى إنه ترك ما كان فيه من تنعم فى الملبس ، واستشعر الموت ، واستمر على ذلك سبعين ليلة ، أراد القاسم أن يخرجه من هذه الحالة التى رآه عليها ، وهو يعلم عنه التقوى والصلاح والتأسى بالصالحين فقال له : « أعلمت أن من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل ، ومواجهة النعم بالتذلل» فما كان من عمر إثر سماعه هذا من القاسم إلا أن خرج من هذه الحال ، وبدا فى ملابس من حبرات اليمن ، يقول الرواة إن ثمنها ثمانمائة دينار[1] .

كان لا يفتى إلا بما يعلم :

كان إذا توجه إلى الحج ، ونزل بمنى ، وعرف الناس مكانه اتجهوا إليه يسألونه عن بعض الأمور ، وكان لا يرى غضاضة إذا سئل عن أمر لا يعرفه أن يقول : لا أدرى فقد روى حماد بن زيد عن أيوب قال : سمعت القاسم يسأل بِمِنًى ، فيقول : لا أدرى ، لا أعلم .

فلما أكثروا عليه قال : والله ما نعلم كل ما تسألون عنه ، ولو علمنا ما كتمناكم ، ولا حلّ لنا أن نكتمكم[2] .

---

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٨٣ .   (١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٨٤ .

كان يحذِّر من السائلين عن المتشابهات :

فقد روى عن عمته عائشة رضي الله تعالى عنها : أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[1] .

فقال النبى ﷺ : « إذا رأيتم الذين يسألون عما تشابه منه فهم أولئك الذين سماهم الله ، فاحذروهم[2] » ومما رواه القاسم عن عمته عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجلّ ؟ قالوا : الله عز وجل ورسوله أعلم. قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم »[3] .

وكان القاسم يعيش حياة أقرب إلى الترف والتنعم شأنه فى ذلك شأن فقهاء المدينة ، وكأنما أرادوا أن يقولوا للناس بلسان الحال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[4] .

وهذا أمر متوقع من رجل أمه ابنة ملك فارس ، فقد قال العلاء بن زَبْرٌ دخلت على القاسم بن محمد ، وهو فى قبة معصفرة ، وتحته فراش معصفر ، ومرافق حمر ، فقلت :

---

(١) آل عمران آية ٨ . (٢) حلية الأولياء جـ ٢ ص١٨٥ . (٣) حلية الأولياء جـ ٢ص ١٨٧.
(٤) الأعراف الآية ٣٢ .

يا أبا عبدالرحمن ، هذا مما أردت أن أسألك عنه . قال : لا بأس مما امتهن منه . وقال عيسى بن حفص : رأيت القاسم بن محمد يلبس الخزّ ورأيت عليه ملحفة[١] معصفرة .

ولما تقدمت السن بالقاسم بن محمد فقد بصره ، ولكن ذلك لم يؤثر فى منهجه واجتهاده فى عبادته ، ولما حضرته الوفاة ، وكان بمكان يسمى القديد بين مكة والمدينة ، وكان سفره هذا للحج أو للعمرة شك الرواة فى ذلك ، فأوصى ابنه قائلا : سنّ عليّ التراب سنا ، وسوّ عليّ قبرى ، والحق بأهلك ، وإياك أن تقول كان وكان[٢] .

وكان مما تقدم به لابنه بالنسبة لكفنه قوله : كفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها ، قميصى وإزارى وردائى ، فقال ابنه : يا أبت لا تريد ثوبين ؟

قال : يا بنى هكذا كفن أبو بكر فى ثلاثة أثواب ، والحى أحوج إلى الجديد من الميت[٣] .

رحم الله القاسم بن محمد فقد كان نموذجا فريدا فى السماحة والفقه والتواضع ، والعفاف .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته فبعضهم يذكر أنه توفى سنة إحدى ومائة أو اثنتين ومائة أو سنة ثمان ومائة أو اثنتى عشرة ومائة، ولكن الأرجح أن وفاته كانت سنة ثمان ومائة.

وكانت سنه عند وفاته ثلاثا وسبعين سنة أو سبعين حسب اختلاف الروايات فى تاريخ وفاته رحمه الله وأحسن مثوبته .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ١٩٢ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٦٠ .
(٢) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٨٤ . (٣) الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ١٩٣ .

خارجة بن زيد

(١٠٠هـ)

أحد فقهاء المدينة الذين دعاهم عمر بن العزيز لما ولى إمْرة المدينة ، وطلب إليهم أن يقدموا له النصيحة ، فيما يعرض له من أمور الفتيا والقضاء .

أبوه زيد كاتب الوحى لرسول الله ﷺ ، والذى أشرف على كتابة المصحف فى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وفى أيام عثمان رضى الله عنه كان على رأس اللجنة التى وكل إليها كتابة المصحف .

ورث خارجة علم أبيه ، وقد أجمعت كلمة علماء الرجال على توثيقه والثناء عليه ، وكان هو وطلحة بن عبيد الله بن عوف فى زمنهما يستفتيان ، وينتهى الناس إلى قولهما ، ويقسمان المواريث بين أهل المدينة من الدور والنخل ، والأموال ، ويكتبان الوثائق للناس[1] .

وكان عمر بن عبد العزيز يعرف له قدره ومكانته ، ويبدو أن حقه فى الديوان كان قد قطع عنه ، وقد كتب إلى عمر بن عبدالعزيز أن يعطى خارجة ما قطع عنه من الديوان ، فقال : لا يسع المال ذلك ، ولو وسعه لفعلت[2] ، ويبدو أن ذلك كان بعد أن ولى عمر إمارة المؤمنين ، يدل على ذلك ما جاء فى سير أعلام النبلاء من أن خارجة مشى إلى أبى بكر بن حزم وكان والى عمر على المدينة ، فقال له : إنى أكره أن يلزم أمير المؤمنين من هذا مقالة ، ولى نظراء ، فإن عمهم أمير المؤمنين بهذا فعلت ، وإن هو

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٣٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٤٣٨ .

خصني به ، فإني أكره ذلك له . ولعل عمر كان مستعدا أن يعطى لخارجة ما قطع عنه ، فلما طلب خارجة أن يكون ذلك عاما لكل من قطع عنهم نصيبهم من الديوان كان ذلك سببا في اعتذار عمر ، وقد بين السبب في قوله : « لا يسع المال ذلك ، ولو وسعه لفعلت» .

ولعل القارىء يتساءل لماذا قطع عن خارجة وسواه نصيبهم من الديوان ، ويبدو أن ذلك قد حصل بعد ثورة أهل المدينة أيام يزيد .

وقد كان خارجة رحمه الله يتمتع بمكانة أثيرة لدى عمر بن عبدالعزيز ، بدليل أنه اختاره ليكون من الفقهاء الذين يستشيرهم ، ولما أخبر عمر بوفاة خارجة وكان ذلك عام ٩٩ أو ١٠٠ على اختلاف بين الروايات ، بدا عليه الحزن لفقده ، واسترجع ، وضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو تصرف يقع من الإنسان لما يفاجأ بأمر غير متوقع وعلق عمر على الخبر قائلا : « ثلمة والله في الإسلام ».

وقد روى عن عدد من الصحابة غير أبيه ، منهم عمه يزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وسهل بن سعد ، وعبدالرحمن بن أبي عمرة ، وأمه أم سعد بنت الربيع ، وأم العلاء الأنصارية .

وأخذ العلم عنه عدد من العلماء أشهرهم محمد بن شهاب الزهري ، وأبو الزناد .

ويفهم من الروايات التي تحدثت عنه أنه كان حسن المنظر ، أنيق الهيئة ، فقد قال زيد بن السائب : رأيت خارجة بن زيد يلبس كساء خز ، ورأيته يلبس ملحفة معصفرة ، ورأيته يعتم بعمامة

بيضاء ، وقال فى موضع آخر : كان حسن الجسم .

وقد عرفنا أن أباه زيد بن ثابت كان فى حالة رافهة ، ولاشك أن جانبا كبيرا من مال أبيه قد آل إليه ، لأن أغلب إخوته كانوا قد قتلوا يوم الحرة ، ولهذا كان أمرا بدهيا أن يبدو عليه آثار النعمة والثراء فى ملبسه ومظهره ، وكانت تلك سمة فقهاء المدينة عامة .

وكان له ثمانية من الأولاد أربعة منهم بنون ، وهم زيد وعمرو، وعبد الله ومحمد ، وكان يكنى أبا زيد وقد عاش خارجة سبعين سنة ، وقد روى عنه سنة وفاته أنه قال : رأيت فى المنام كأنى بنيت سبعين درجة ، فلما فرغت منها تهورت ، وهذه السنة لى سبعون سنة قد أكملتها[١] .

وكانت وفاته فى خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ أو عام ١٠٠ للهجرة على خلاف بين المؤرخين ، وصلى عليه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والى المدينة .

وقد روى عن عمه يزيد بن ثابت حديثا قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى البقيع ، فرأى قبرا حديثا ، فقال : ما هذا القبر ؟

قالوا : قبر فلانة مولاة فلان ، ماتت ظهرا ، وأنت قائل[٢] فكرهنا أن نوقظك ، فقام فصفنا خلفه ، وكبر عليها أربعا ، ثم قال: لا يموتن أحد مادمت بين أظهركم ، ألا آذنتمونى ، فإن صلاتى رحمة .

ووقعت حادثة قتل بالمدينة أيام معاوية ، ولم يكن هناك شهود ، ويبدو أن المقتول كان يمت بصلة قرابة إلى خارجة ، وكانت هناك دلائل تشير إلى القاتل ، ولكنها لم تبلغ مبلغ اليقين ،

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٢٦٣ .
(٢) يعني مستريحا وقت القيلولة .

واجتمع رأى الناس أن يحلف ولاة المقتول ، ويسلم إليهم القاتل فيقتلوه ، وهذه الحالة تعرف فى الفقه الإسلامى بالقسامة إذا كانت هناك تهمة ، ولم تكن هناك أدلة قاطعة على القاتل ، حينئذ يحلف ولاة المقتول خمسين يمينا ، ثم يسلم إليهم القاتل ليقتل .

وفى هذه الحالة التى بين أيدينا ، تقول الرواية حولها إن أحد أهل المدينة سكر ، وضرب رجلا بالسيف حتى قتله ، وكان والى المدينة سعيد بن العاص ، والخليفة معاوية فى دمشق ، فركب خارجة فى جماعة من أهل القتيل إلى معاوية ، فقصوا عليه القصة، فكتب إلى سعيد بن العاص : إن كان ما ذكر حقا فليحلف أهل القتيل على القاتل ثم يسلم إليهم .

فلما تسلم سعيد كتاب معاوية ، قال : أنا منفذ كتاب أمير المؤمنين ، فاغدوا على بركة الله ـ يقول خارجة ـ فغدونا عليه فأسلمنا إياه سعيد بعد أن حلفنا خمسين يمينا[1] .

ويفهم من سياق الرواية أن سعيدا كان متوقفا فى الأخذ بالقسامة فى هذا الموقف ، ويدعونا ذلك أن نذكر بالتفصيل حكم القسامة وصورتها ورأى العلماء فيها ، أما القسامة فصورتها أن يوجد قتيل فى مكان ولا يعرف قاتله ، وهناك بعض الشواهد غير القاطعة تشير بإصبع الاتهام إلى جماعة أو قبيلة أو أهل بلد ما عند ذلك يختار ولى المقتول خمسين رجلا ممن حامت حولهم شبهات القتل ليحلفوا بالله أنهم ما قتلوه ، ولا علموا له قاتلا فإن حلفوا سقطت عنهم الدية ، وإن أبوا وجبت ديته عليهم وإن التبس الأمر تحمل ديته بيت المال .

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق جـ ٥ ص ٢٧ ، ٢٨ .

والصورة التى ذكرها الفقهاء للقسامة تجعل الشبهة متجهة نحو جماعة لا نحو شخص بذاته ، وأن المطالب بالقسم من تتجه التهمة إليهم ، أما الحالة التى أمامنا فإن الاتهام فيها موجه نحو شخص بذاته ، وأن الذين أقسموا هم أهل القتيل ، ولعل ذلك كان سبب توقف سعيد بن العاص حتى جاءه كتاب معاوية .

أما حكمها فقد اختلف العلماء فى وجوب الحكم بها ، حيث قال بوجوب الحكم بها جمهور العلماء ، وذهب آخرون إلى عدم جواز الحكم بها والذين ذهبوا إلى وجوب الحكم بها استندوا إلى ما ثبت عنه ﷺ فى حديث حويصة ومحيصة ، وفيه سأل رسول الله ﷺ أهل المقتول وكانوا من الأنصار - أتحلفون خمسين يمينا ؟

قالوا : كيف نحلف ، ولم نشاهد ؟

قال : فيحلف لكم اليهود - وكانوا هم الذين تحوم حولهم الشبهة.

قالوا : كيف نقبل أيمان قوم كفار ؟

أما القائلون بعدم جواز الحكم بها ؛ لأنها مخالفة لأصول الشرع المجمع على صحتها ، وذلك أن الأصل فى الشرع أن لا يحلف أحد إلا على ما علم يقينا أو شاهد حسًا ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يقسم أولياء الدم ، وهم لم يشاهدوا القتيل[١] .

وقد ردوا على استشهاد الفريق الأول بالحديث السابق بأن القسامة حكم جاهلى ، وأن رسول الله ﷺ تلطف معهم ليريهم أنه لا يلزم الحكم بها حسب أصول الإسلام ولو كانت السنة أن

---

(١) انظر فقه السنة جـ ٢ ص ٥٨٦ .

يحلفوا ولم يشهدوا لقال لهم رسول الله ﷺ : هى السنة ، وهو لم يقل ، وما دام هذا الأثر ليس نصا فى القضاء بالقسامة والتأويل يتطرق إليه ، فمن الأولى أن تحمل على الأصول الأولى .

ولما كان الرأى حول القسامة منقسما فقد استمر يشغل بال العلماء والباحثين وذوى الرأى حتى زمن عمر بن عبد العزيز الذى كان يرى فيما يبدو عدم جواز الحكم بالقسامة ، فقد روى البخارى عن أبى قلابة أن عمر بن عبدالعزيز أبرز سريره يوما للناس ، ثم أذن لهم ، فدخلوا عليه ، فقال : ما تقولون فى القسامة؟

فأضب القوم ، وقالوا : نقول : إن القسامة القود بها حق ، قد أقاد به الخلفاء .

فقال : ما تقول يا أبا قلابة ؟ ونصبنى للناس .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، عندك أشراف العرب ، ورؤساء الأجناد أرأيت لو أن خمسين رجلا شهدوا على رجل ، أنه زنى بدمشق ولم يروه أكنت ترجمه ؟

قال : لا .

قلت : أفرأيت لو أن خمسين رجلا شهدوا على رجل أنه سرق بحمص ، ولم يروه ، أكنت تقطعه ؟

قال : لا .

وفى بعض الروايات : قلت : فما بالهم إذا شهدوا أنه قتله بأرض كذا ، وهم عندك ، أقدت بشهادتهم .

قال : فكتب عمر بن عبد العزيز فى القسامة ، أنهم إن أقاموا شاهدى عدل ، أن فلانا قتله فاقده ، ولا يقتل بشهادة الخمسين

الذين أقسموا ومن السهل أن نستشف من هذا الحوار الذى أجراه عمـر بن عبدالـعزيز مع أبى قلابة على مـلأ من الناس أنه لا يرى جواز الحكم بالقسامة .

أصل القسامة :

كانت القسامة معمولا بهـا فى الجاهلية قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أقـرها على مـا كانت عليـه كمـا يرى فريق العلمـاء الذى يحكم بهـا ويرون أن الحكمة من إقـرارها الحفـاظ حمـاية للنفس وعدم ضـياع دم القتلى هدرا ، وقـد روى البخـارى والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول قسامة كانت فى الجاهلية كانت بسبب رجل مـن بنى هاشم ، استأجـره رجل من قريش من فـخذ أخرى ، فـانطلق مـعه فى إبله ، فـمر به رجل من بنى هاشـم ، قد انقطعت عروة جوالقه ، فقال : أغثنى بعقال أشدّ به عروة جوالقى، لا تنفر الإبل ، فأعطاه عقالا ، فشد به عروة جوالقه .

فلما نزلوا ، عقلت الإبل إلا بعيرا واحـدا ، فقال الذى استأجره ، ما بال هذا البعير لم يعقل من بين الإبل ؟

قال : ليس له عقال .

قال : فأين عقاله ؟ فحذفـه بحصى كان فيه أجله ، فمرّ به رجل من أهل اليمن .

فقال له : أتشـهد الموسـم .

قال : ما أشـهده ، وربما شـهدته .

قال : هل أنت مبلغ عنى رسالة ، مرة من الدهر ؟!

قال : نعم .

قال : فإذا شـهـدت ، فنـاد : يا قـريش ، فإذا أجابوك ، فنـاد :

يا آل بنى هاشم ، فإن أجابوك ، فسل عن أبى طالب ، فأخبره أن فلانا قتلنى فى عقال .

ومات المستأجر .

فلما قدم الذى استأجره ، أتاه أبو طالب .

فقال : ما فعل صاحبنا ؟

قال : مرض فأحسنت القيام عليه ، ووليت دفنه .

قال : لقد كان أهل ذاك منك .

فمكث حينا ، ثم إن الرجل الذى أوصى إليه ، أن يبلغ عنه وافى الموسم .

فقال : يا قريش .

قالوا : هذه قريش .

قال : يا آل بنى هاشم .

قالوا : هذه بنو هاشم .

قال : أين أبو طالب ؟

قالوا : هذا أبو طالب ؟

قال : أمرنى فلان أن أبلغك رسالة ، أن فلانا قتله فى عقال فأتاه أبو طالب ؛ فقال : اختر منا إحدى ثلاث ؛ إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل ، فإنك قتلت صاحبنا ، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله ، فإن أبيت قتلناك به فأتى قومه فأخبرهم .

فقالوا : نحلف .

فأتته امرأة من بنى هاشم كانت تحت رجل منهم ، كانت قد ولدت منه ، فقالت :

يا أبا طالب : أحب أن يجبر ابنى هذا برجل من الخسمين ، ولا تصير يمينه حيث تصير الأيمان : ففعل .

فأتاه رجل منهم فقال : يا أبا طالب ، أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل فيصيب كل رجل منهم بعيران ، هذان البعيران فاقبلهما منى ، ولا تصير يمينى حيث تصير الأيمان ، فقبلهما ، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

فوالذى نفسى بيده ما حال الحول ، ومن الثمانية والأربعين عين تطرف[1] .

هذا هو أصل القسامة لما كانت معروفة فى الجاهلية ولذلك لما وقع حادث القتل فى المدينة واتهم الأنصار اليهود ، طلب إليهم أن يحلفوا فأبوا ، فقال يحلف اليهود فلم يرض الأنصار ، واتخذ المجيزون للحكم بالقسامة هذا الحديث أصلا ودليلا ، وأما المانعون فإنهم قالوا كما سبق إن ذلك كان تلطفا من النبى ﷺ ، ولو كان يريد الأخذ به لقال إنه السنة .

هذه قصة القسامة فى الجاهلية والإسلام التى حدثنا خارجة عنها ، والدور الذى قام به عند معاوية لما وقعت حادثة قتل أحد أهل المدينة ، أوردناها بالتفصيل رغبة فى إفادة القارىء شيئا قد يندر وقوفه عليه أو معرفته به ما لم يكن من المتخصصين .

أما خارجة فإن العلماء يشككون فى صحة روايته عن عمه يزيد، لأن عمه استشهد فى معركة اليمامة ومعركة اليمامة كانت أيام خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن خارجة قد ولد بعد ، لأن مولده كان إما عام ٢٨ ، ٢٩ هـ ، وقد سبق أنه توفى عن عمر بلغ السبعين وكانت وفاته عام ٩٩ أو ١٠٠ على خلاف بين

---

(١) راجع فقه السنة جـ ٢ ص ٥٨٤ ، ٥٨٥ .

المـؤرخـين ولعـل روايتـه عن عـمـه كـانت بالواسـطة ولم تكن مباشرة .

وكذلـك اختلفت كلمـة العلماء بالنسـبة لإكـثاره من الحـديث ، فبـينما يرى ابن سـعد أنه كان كـثير الحـديث ، يذهب الذهبى فى تذكرة الحفـاظ أنه لم يرو عنه حديث كثير غـير أنه لا خلاف على فقهه وثقته .

رحم الله خارجة وجزاه خير الجزاء .

سليمان بن يسار

(١٠٧هـ)

كان أبوه يسار فارسيا مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها ، وكان سليمان عالما ثقة عابدا ورعا حجة ، وكان أخوه عطاء من العلماء أيضا إلا أن سليمان كان فيما يبدو أكثر فقها ومعرفة بالإفتاء ، ولهذا كان أحد الفقهاء السبعة الذين كان يرجع إليهم عمر بن عبدالعزيز وقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة وأم سلمة رضى الله عنهم ، وروى عنه جماعة من أكابر العلماء أظهرهم الزهرى وكان موثوقا فى علمه من العلماء ، وموضع تقدير سعيد بن المسيِّب حتى إنه كان إذا جاءه من يسأل عن فتوى يقول له : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فإنه أعلم من بقى اليوم وجاء ابن المسيِّب يوما رجل يسأله عن بعض الأحكام .

فقال له : سألت أحدا غيرى ؟

قال : نعم .

قال : من هو ؟

قال : عطاء بن يسار وعطاء هذا أخو سليمان

قال : فما قال لك ؟

قال : كذا وكذا وأخبره عن الجواب ، وكأن إجابته لم تلق قبولا عند ابن المسيِّب .

فقال للرجل : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فسله ثم أخبرنى ما قال لك .

فتوجه الرجل إلى سليمان ، وسأله ، وتلقى الإجابة ، ولما أخبر سعيد بن المسيِّب ، قال : عطاء قاض ، وسليمان مفت[1].

وكان البعض يرى أنه أفهم من سعيد .

وقد ولاه عمر بن عبد العزيز سوق المدينة[2] لما كان واليا

---

(١) المعرفة والتاريخ جـ ١ ص ٥٤٩ . (٢) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٧٥ .

عليها وكان سليمان رحمه الله كثير العبادة يصوم الدهر ، شديد الخشية لله والمراقبة له فى السر والعلن .

وكان حسن الهيئة جميل الوجه ، وقد جرّ عليه جمال وجهه بعض المتاعب وعرضه لبعض الفتن التى عصمه الله منها لخشيته وتقواه فقد قام برحلة من المدينة إلى مكة هو ورفيق له ، ولما وصلا إلى الأبواء ضربا خيمة أقاما بها ، وذهب رفيقه إلى السوق يشترى بعض ما يحتاجون إليه ، وبصرت به أعرابية كانت تقيم بالجبل المطل على الخيمة ، فأخذ حسنه وجمال وجهه بلبها ، فانحدرت إليه فى الخيمة ، وجلست بين يديه ، وأسفرت عن وجهها ، يقول راوى الخبر فبدا كأنه فلقة قمر ، وتحدثت إليه ، فظن أنها تريد طعاما ، فقام إلى ما عنده من طعام ليعطيها إياه . فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله .

فقال : جهزّك إلىّ إبليس ، ثم وضع رأسه بين كفيه وأخذ يبكى وينتحب ، فلما رأت منه ذلك ، أسدلت برقعها على وجهها ، وانصرفت عائدة إلى خيمتها .

ولما عاد صاحبه ، وقد ابتاع ما يحتاجان إليه ، ورآه وقد انتفخت عيناه من البكاء ، وانقطع حلقه .

فقال له : ما يبكيك ؟

قال : خير .. ذكرت صبيتى .

قال : لا ، إن لك قصة ، إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها ، ولم يزل به حتى أخبره بشأن الأعرابية فوضع ما جاء به وانخرط فى بكاء حار ، ودهش سليمان من بكاء صاحبه .

وسأله : ما يبكيك ؟

قال : أنا أحق بالبكاء منك .

قال : فلم ؟

قال : لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها .

وقال راوى الخبر : فمازالا يبكيان .

فلما انتهى سليمان إلى مكة ، وطاف وسعى ، أتى الحجر ، واحتبى بثوبه ، فنعس ، فإذا به يرى فى النوم : رجلا وسيما جميلا طوالا ، له شارة حسنة ، ورائحة طيبة .

فسأله سليمان : من أنت رحمك الله ؟

قال : أنا يوسف بن يعقوب .

قال : يوسف الصديق ؟

قال : نعم .

قلت : إن فى شأنك وشأن امرأة العزيز لشأنا عجيبا .

فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة ، الأبواء أعجب[1] .

وهذا الخبر يدل على ما كان يتمتع به سليمان بن يسار من عفة وأمانة وتقوى لله ومراعاة لحرماته وخشية منه .

وكان شأن سليمان شأن الفقهاء فى عصره يبدو نظيف الثياب، حسن المظهر .

وقد عاش سليمان ثلاثا وسبعين سنة وتوفى على أرجح الأقوال عام سبعة ومائة للهجرة .

فرحمه الله وأجزل مثوبته .

---

(١) راجع حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢

قائمة المراجع

القرآن الكريم
١ ـ اختلاف الحديث — للإمام الشافعى
٢ ـ الاغانى — لأبى الفرج الأصفهانى
٣ ـ أنساب الأشراف — للبلاذرى
٤ ـ البداية والنهاية — لابن كثير
٥ ـ البيان والتبيين — للجاحظ
٦ ـ تاريخ الإسلام — للذهبى
٧ ـ تاريخ بغداد — للخطيب البغدادى
٨ ـ تاريخ الطبرى — لأبى جعفر الطبرى
٩ ـ تذكر الحفاظ — الذهبى
١٠ ـ تهذيب تاريخ دمشق — لابن عساكر
١١ ـ تهذيب التهذيب — لابن حجر العسقلانى
١٢ ـ جمهرة نسب قريش — لمصعب الزبيرى
١٣ ـ حلية الأولياء — لأبى نعيم الأصبهانى
١٤ ـ زهر الآداب — للحصرى
١٥ ـ سيد التابعين — د.محمد ابراهيم الجيوشى
١٦ ـ سير أعلام النبلاء — للذهبى
١٧ ـ شرح السنة — للبغوى
١٨ ـ الطبقات الكبرى — لابن سعد
١٩ ـ العبر فى خبر من غبر — للذهبى
٢٠ ـ العقد الفريد — لابن عبدربه
٢١ ـ العلماء بين التزمت والتسامح — د.محمد ابراهيم الجيوشى
٢٢ ـ فقه الإمام سعيد — د. هاشم جميل عبدالله
٢٣ ـ فقه السنة — الشيخ سيد سابق
٢٤ ـ مسار الدعوة فى العهد المكى — د.محمد ابراهيم الجيوشى
٢٥ ـ المعرفة والتاريخ — للفسوى
٢٦ ـ نسب قريش — لمصعب الزبيرى
٢٧ ـ وفيات الأعيان — لابن خلكان

الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977 - 08 - 0780 - X

رقم الإيداع
٩٨/١٤٤٩٠

